



إبداعات التفرغ

[٢]

رواية

ظل عائشة

محمود حنفي

مبتدأ:

أيـام طلـوع عائشـة

مطـــالع الســـبعينيات المصـــرية: زمن ردىء. ثمرة فاسدة شوهاء لزواج الفجاجـــة بالادعـــاء. الكذب شريعة، والوضوح جناية، ولست موهوبا، ولا حتى مدربـــا. ولمـــا سُـــدت فى وجهى كل السبل، استجبت فى النهاية لغواية السفر.. هجرت وطنى الذى هجرنى..

قـــبلها، فى أوائل الستينيات، تخرجت من الجامعة التى أسسها طه حسين، بعـــد دراســـة الفلســـفة لأربع سنوات، بكلية الآداب السكندرية. وكنت فتى يتيما مـــتأجج العواطـــف، يعيش فى حضن أم مريضة طيبة، انكفأت على تربية ولدها، مـــنكرة كـــل حقوقهـــا، منذ مات زوجها فى ريعان شبابه إثر حادثة سخيفة من حادثـــات عالم غير مفهوم غير مبرر. وإبان تلك الأيام، كنت قد تدلهت عشقا فى بنـــت جـــيران تسمى عائشة، طلعت على دنياى كشمس الصباح، وظلت تتصاعد مضيئة حتى كادت تحرقنى. كانت تنطوى على سحر أسرنى، محوره شقاوة خبيئة تطل من عينين مشحونتين بأسرار تستعصى على عقل وحدس شاب بكر وحيد، لا يعـــرف اللعـــب، ولـــم يدرب أبدا عليه. كنا نعيش فى بيت قديم من بيوت شارع الســـيالة المبنية على الطراز التركى، وصادقت أمى أم عائشة، وكثرت مع الأيام زياراتهمـــا المتبادلة. لم تكن أمى، مع فقرها ومرضها، مختلفة عن كل الأمهات، لاحظـــت بحســـها الأنـــثوى شغفى بعائشة، فحلمت بالفرح بوحيدها.. قالت عقب دخولـــى الجامعـــة: ربنا يجعلها من نصيبك، أمها بنت أصول، وأبوها الريس بكر رجل مقتدر وشيخ الصيادين فى الأنفوشى، ولن يجدوا أحسن منك بعدما تتخرج. ولـــم تتحقق آمال أمى الطيبة المسكينة، وقد كانت آمالى أنا بدورى ومناى، ليس لأن أمـــى ماتت بعد ذلك بعامين، متأثرة بأعراض مرض السكر الذى هد جسمها لتقتـــيرها على نفسها وإهمالها للعلاج، وليس بسبب تأخر تعيينى بعد التخرج فى إحـــدى الوظـــائف، ثم إيداعى السجن بعد ذلك على مدى ثلاث سنوات فى قضية

ذائعـــة. وإنما ببساطة، لأن عائشة أمعنت طويلا فى اللعب، فى مواجهة شاب لم يكن اللعب من مواهبه، ولم يعلمه أحد كيف يلعب..

بعـــد موت أمى، وتخرجى. وتلكؤ القوى العاملة فى تعيينى بإحدى الوظائف حســبما كان متبعا بالدولة المصرية حينذاك، وقد شددت قبضتها على كل أسباب الحياة، وإزاء شجون متصاعدة وأسئلة حارقة، إضافة إلى ألاعيب عائشة التى لم تنقطع حتى أورثتنى إحساسا يكاد يثبت ويستقر بالهوان، اندفعت وراء اقتناع حر بجــدوى العمــل وشــفائه لكل الأمراض. كنت شابا حالما حزينا، سليم النية قليل الخبرة، محدود العلاقات، تتناطح فى رأسه أسئلة كبيرة، يسعى لاستجلاب إجابات عــنها بواســطة موهبة حاباها الله به: الكتابة. وكانت ثقتى بنفسى وبالكون ثقة كبــيرة، تــرقى إلى ثقة الطاووس بجماله، فظننت أنى سأصل إلى إجابات شافية سأقنع الدنيا كلها بها.. استثمرت فراغ وقتى، وعزلتى، وقراءاتى، وشجنى وألمى وحيرتى، وعكفت على وضع كتاب شُغلت بفكرته: ما الله، ما الشيطان..؟ وبعد أن ظننــت أنى أجبت، دفعت بمخطوط الكتاب إلى إحدى المطابع الصغيرة، ثم استلمته بعــد شــهرين، بعد أن تكلفت فى طبعه كل الجنيهات القليلة التى كانت بحوزتى، وشــرعت فى إهدائه إلى قليل من المعارف والمهتمين بالأفكار، حسبما تصورت بخبرة عمرى القصير آنذاك..

بعـــد أقــل من شهر، جاءنى رد على كتابى من فوق إحدى صفحات جريدة ســيارة: هــذا شاب موهوب أضلته تيارات الفكر المستوردة، وينبغى على الدولة الوطنية الجديدة أن تهتم بهدايته وهداية من على شاكلته من الشباب. ولم تتأخر الدولـــة الوطنــية المصرية الجديدة فى ذلك الحين عن تلبية النداء، وعملت على الفــور على هدايتى.. أرسلت ضابطا وبضعة جنود إلى عنوان بيتى، قبضوا على أثناء الليل، وأودعونى السجن. وقال القاضى بعد أن مثلت أمامه: إبليس جميل يا بــنى.. كيف..؟ أجبت: إبليس دلالة يا سيادة القاضى.. قال لا فى مواجهة غياب التفســير والتناقض غير المفهوم. ونظر نحوى القاضى نظرة تائهة، ولم ينطق. لكــنه نطــق بعد عدة أسابيع: السجن ثلاث سنوات.. ومن حيثيات الحكم سمعت

ألفاظــا مثل: الطعن فى الدين، والاستخفاف بالقيم الفاضلة، والتطرف والجموح، ولم يرد أحد على فكرة التناقض فى النواهى، أو على قيمة التمرد الدافعة الى تقدم الحياة، والموازنة بين الجمال والقبح..

قضــيت فترة السجن فى قراءات محمومة، كان يمدنى بها نعمان بن عمى، عمى الذى كان يرعى مصالحى فيما تبقى من تجارة عطارة كان لأبى نصيب فيها قبل وفاته: قراءات فى الأدب والفلسفة، عمقت رؤيتى وصقلت أدواتى فى التعبير. ولــم تهــتم عائشــة أثناء فترة سجنى بالسؤال عنى، لم تكتب مجرد ورقة. ولما استفسرت عنها، قال نعمان بن عمى: تزوجت. سألته عرضا: من..؟ اجاب نعمان: الــريس حمــودة الصــياد، صــديق أبيها الصدوق. قلت والدهشة تزلزلنى: لكنه مــتزوج. أجــاب نعمان: ماتت زوجته الغنية العجوز، ونازعه الورثة من أقاربها لأنــه لم ينجب منها ولدا ولا بنتا، حتى أفلسوه. صحت مطلقا احتجاجى: لكنه فى عمر أبيها. وصمت نعمان..

ودعــت تجربة السجن المرة وقد صرت أكثر فهما وأكثر تماسكا، وعرفت وقــتها أن وطــنى لا يرحب بالمتمردين وقلت لنفسى: هكذا عوقب سيد درويش بالإهمال وتنعم محمد عبد الوهاب فى كل العصور. خرجت من السجن غير مرحب بــى. أهل بحرى والسيالة يعرفون بعضهم البعض، سلالات متعاقبة من المغاربة والشركس والأتراك وأحفاد المماليك والبدو، وكلهم أنكرونى. وقال عمى المسئول عــن حصــة أبى فى محل العطارة: اسمع يا بنى.. تجارتنا تبور، الحكومة سدت الجمارك ولا يوجد استيراد للبضائع، لك حق فى ذمتى، إما أن تأتى لتديره بنفسك أو تتخارج ويا دار ما دخلك شر. وأعطانى ألف جنيه. ومن وجعى وهوانى ذهبت الى أحد أساتذتى بالجامعة، شكوت وطلبت النصيحة، إذ كان يعتبرنى أحد تلامذته النجباء. رأيته مقطب الجبين. وسمعته يقول بمرارة:

- بلادنــا يا صديقى تقتل من يخرج على الإجماع دون إراقة نقطة دماء. ومــع ذلــك فهى بلاد رحيمة لا تقطع عيش أبنائها. إنها حريصة على اســتمرار حياتهم البائسة. وأنت ضيعت فرصة عملك، ولو كنت موظفا،

ولــن تصبح، لأعادوك إلى وظيفتك مثل الألوف الذين خرجوا من السجن السياسى وشيكا، ومن بينهم أساتذة جامعيون ومفكرون كبار. لا تضع ما بقى من عمرك فى الشجن.. سافر، أنت لا زلت صغيرا.. فى السفر سبع فوائــد. ومــن ناحيــتى سأوصــى بك.. أعرف لا أزال بعض الأصدقاء بالجامعات الأوروبية بوسعهم مساعدتك وتدبير منح دراسية لك، على أن تعمل بجد متحملا المشاق، ولن تجد مساعدة حقة إلا من نفسك..

رأيــتها بعــد تفكير متأن، نصيحة تشى بالحكمة وإن تطلبت الجرأة. سفنى احترقت، فعلى أى شىء أحرص؟؟ ووفى أستاذى بوعده، وشغل رأسى بمعلومات ومعارف، وملأ حقيبتى بأوراق تزكية، وساعدنى المبلغ الذى دفعه لى عمى على السفر.. فشرعت أجهز نفسى للرحيل..

سبعينيات مصرية، زمن ردىء: وطن مهزوم، وشعب لا يملك من أمر نفسه شــيئا.. بل عله لم يملك من قبل، على مدى عهود حياته المريرة، من أمر نفسه، أى شىء..

شــرعت فى تجهيز نفسى للسفر، فإذا بطرقات خافتة على الباب تسعى إلى منعى..

كــان الوقــت قبــيل الغروب. فتحت متباطئا، وفوجئت بها تندفع إلى داخل شقتى، وقفت مشدوها بلا حركة، بينما قالت هى بصوت متهدج:

- أغلق الباب من فضلك..

تعثرت العبارات فى حلقى. غمغمت..

- أهلا وسهلا..

كررت كمن على رقبتها السكين:

- أغلق الباب من فضلك..

اســتجمعت نفسى ودفعت الباب فانغلق. اطمأنت وجلست على أريكة بمدخل

الشقة. قلت أثناء ذلك:

- ما الحكاية يا عائشة..؟

تنهدت، وبدلا من أن تجيب ابتسمت، وتطلعت إلى بعينيها الساحرتين، ونطقت بارتياح:

- حمد الله على السلامة..

كان مدخل الشقة القديمة معتما، فأردت أن أتأكد، لعلى كنت أغالط نفسى. مددت أصبعى وضغطت على مفتاح النور قائلا بصوت خفيض ونبرة تهكم حزين:

- فيك الخير.. تو ما تذكرت..

لكنها كانت سبقتنى وشهقت متوقعة سطوع الضوء:

- لا..

وانتشر الضوء فى المكان على رغمها. وخطوت خطوتين فى اتجاهها وأنا أقول، ربما كرد فعل للفظ النهى الذى صدر عنها:

- ليس من اللائق أن أتركك فى العتمة..

ورأيتها تضحك وتقول بدلال:

- أنا أحبها..

فعقبت وأنا أجلس بالقرب منها على الأريكة، ولكن متباعدا وحذرا:

- هذا اختلاف فرّق بيننا يا عائشة..

مالت على وهمست:

- الموت وحده هو ما يفرق بيننا..

فنأيت عنها قائلا:

- وزوجك..؟

تجهمت وارتدّت خائبة الرجا..

- إنسه.. إنس أن لى رجلا..

- إن كنت لا تحبينه، فلم تزوجته..؟

فانتفضت، وقالت بحسم:

- حمودة سيد الرجالة..

مدهش. كان حمودة بالفعل سيد الرجال. سمعت عنه فى صغري كثيرا. السيالة وبحرى كلها تعرفه.. صياد بن صياد، وقيل أن جده كان فى وقته شيخ الصيادين بالانفوشى، لكنه لم يترك لأولاده وأحفاده غير السمعة الطيبة مع الفقر والكفاح من أجل لقمة العيش، حمودة يتميز بقوة البدن: ربعة مفتول العضل أشبه بفتو د. لكنه فتوة عادل نادر النموذج، ما أكثر ما خاض معارك منصورة من أجل كلمة حق أو نصرة ضعيف. شديد البأس سمح الوجه فى آن معا، يزامل الريس بكر فى كل طلعات الصيد، يعودان معا إلى بيتهما لا يختلف أحدهما عن الآخر أو يمشى وحده. ألهذا زوّج الريس بكر ابنته الصغيرة صديق عمره، وهل تغنى الصبية اللعوب عن الزوجة الكبيرة الناضجة التى عشقت حمودة وأغدقت عليه حنانا ومالا؟ وكيف تجمع الآن عائشة بين حمودة الأرمل الكريم وبينه هو: المثقف الحائر المضعضع النفس؟ وما سر هذه الزيارة الغامضة المحاطة بالمخاطر؟ وإلى أى شر سيصل استشراء هوس وجنون عائشة وألاعيبها، به وبمن حولها..؟ ماذا تريد منى بعد أن نسيتنى ولا تعرف شيئا عما انتويت وعزمت..؟

- لا أفهم يا عائشة. ولكن بغض النظر عن كونى سأفهم أو لن أفهم. لا أهتم.. أنا راحل فى غضون أيام.. مسافر إلى بعيد، بعيد جدا.. وآمل أن أنسى وينسانى الآخرون..

ضيقت ما بين حاجبيها، فرأيتها أشد حسنا. وتساءلت:

- مسافر..؟ إلى أين..؟

أجبت ببطء وتلكؤ:

- إلى إنجلترا.. وإلى الأبد..

شهقت للمرة الثانية..

- لا..

انسلخت من جوارها. قمت وأوليتها ظهرى، وقلت بنبرة باردة:

- لا أو نعم.. لم يعد الأمر بيدى. ليس لى شىء يربطنى هنـــا..

وسمعتها تقول من وراء ظهرى، صوتها به بحة تكاد تخنقها:

- أنا..

عدت أواجهها..

- لم تعودى الفتاة التى أحببتها، ولا الصبية التى تعلقت بها..

وضغطت على العبارة..

- أنت الآن امرأة متزوجة حسبما علمت قبل أن يفرج عنى..

أسبلت جفنيها. هبطت بنظرتها إلى الأرض. وتباعدت فى الصمت..

أخـــيرا نهضـــت تلملـــم نفسها متجهة نحو باب الشقة. وهى تمد يدها نحو الباب، سألتها من جديد، لا تخلو نفسى من قسوة:

- لماذا تزوجته يا عائشة..؟

التفتـــت نحـــوى الـــتفاتة سريعة، وقرأت فى عينيها اللتين تبدد سحرهما، انكســـارا عمـــيقا. فتحت الباب بسرعة، وانفلتت كالهاربة.. تركتنى شاردا، مهتز البقين الذى بالكاد كان قد ولد، أضافت إلى أحزانى حزنا جديدا..

قبـــيل ســـفرى بساعات جاء نعمان ليودعنى. نعمان بن عمى شاب فى مثل ســـنى، لـــم يكمل تعليمه، فضل أن يبقى إلى جوار أبيه فى محل العطارة يعاونه.

تـــردد ثــــم تنحنح ثم اعتذر عن والده. لم أجد لاعتذاره سببا يستحق. قلت: إنها حياتى ومسئوليتى واختيارى. ظل معى حتى نزلت من البيت، ورافقنى حتى القطار الـــذى سيقلنى إلى القاهرة حيث المطار فالطائرة. على محطة القطار عانقنى بود مخلوط بأسف.. نعمان هو الوحيد، بعد أمى، الذى أحبنى..

وها قد رجعت.. عشرون عاما مضت.. هل بالفعل مضت..؟

كـــل مــــا أراه وأسمعه يؤكد أن الهزيمة باقية، وأن تداعيات الزمن الردىء تنمو وتتشعب.

خبر:

وأيـــام أفـولهـــا

(١)

أزيز احتكاك عجلات الطائرة وهى تلامس أرض ممر الهبوط، يصك سمعى، يكـــاد يثقب أذنى، كأنه نذير. وأحس بجسم الطائرة الذى يضمنى فى جوفه يندفع فـــوق الممر بسرعة خارقة. ماذا يعنى هذا الاندفاع..؟ لا أهل ولا أحباء ولا حتى بيـــت، بيتى الذى كان، هدموه.. تلك أرض انخلعت عنها منذ عشرين عاما، دون أن يحرص على بقائى بها أحد..

انتهت إجراءات مغادرة المطار فى يسر ووقت قياسى، وقرأت البشاشة على وجه رفيقى مارك وأنا أصطحبه إلى بوابة الخروج من مبنى المطار. وسمعته من جوارى يقول بانبهار:

- شعب جميل..

فلم أعقب، وآثرت الصمت..

مـــارك.. رفيقى الشاب.. ابن زميلى وصديقى هنرى ستيوارت، عهد إلى به أبوه كى أرعاه فى خطواته الأولى لدراسة اللغة العربية بمركز تعليم اللغة العربية للأجانـــب بجامعـــة الإســـكندرية. جاءنى هنرى ستيوارت على غير موعد. وقال بلهفـــة: ابـــنى مهووس بدراسة اللغات الشرقية، والعربية على وجه الخصوص، وأنـــت لســـت فـــى حاجـــة إلى من يعرفك به فهو أحد تلاميذك. وقد وقع اختيار المســـئولين فـــى أكسفورد، واختياره، على جامعة الإسكندرية، ليدرس فيها عاما تمهيديا، يستكمل بعدها دراسته الأكاديمية هنا. وقد تذكرت لتوى أنك تخرجت من جامعـــة الإســـكندرية. فهـــل تمانع لو رجوتك أن تصحب ابنى، لأيام، فى زيارته الأولـــى لمصر وللإسكندرية تحديدا، مدينتك حسبما أعرف، على ألا يتعارض هذا مع خططك بالطبع، وفى حدود ما تسمح به إمكاناتك..؟

بوغـت وشـردت، فلمـا لاحظ هنرى ستيوارت شرودى وصمتى، استطرد بـنفس اللهفة: أنا أعرف أنك لم تزر بلادك منذ أن وصلت إلى هنا، لكنك تعلم أن الوضـع الآن هـناك جيد ومطمئن. لقد سمح رئيسكم الجديد للمعارضة بممارسة دورهـا، وحماقـة عملية الكويت انتهت، ونستطيع أن نقول إن الديماجوجية فى منطقتكم، إن لم تكن انحسرت، فهى فى طريقها إلى الانحسار..

اسـتمعت إلـيه صامتا كعادتى. رجل قليل الكلام. وعند النقطة الأخيرة فى حديـثه اضـطررت إلـى الرد، فقلت: لست أخشى الرجوع إلى بلدى كما تظن يا هـنرى، فلست من المعارضة السياسية ولم أكن فى يوم من الأيام، المسألة أعقد مما تظن، وذات صلة وثيقة بنمط الحياة والتفكير هناك، وقد نتفق أو نختلف حول تحلـيلك لمـا أسميته بالديماجوجية، لكن الواقع الذى يخيفنى ولا تعرفه أنت، أن الوشـائج التى كان ينبغى أن تربطنى ببلدى تقطعت كلها. تساءل بدهشة: كلها؟؟ ابتسـمت بحـزن، وقلـت: لا أب ولا أم، لا ولد بالطبع كما تعلم، ولا حتى بيت. ورأيته يرد بتحفز: لكن هناك الأرض، والناس. فعدت إلى الصمت..

لـم أكـن أعنى ببلدى غير الإسكندرية، المدينة التى أيقنت منذ شبابى أنها ضُـمَّت قسـرا إلى بيئة غير بيئتها. أنا الآن تجاوزت الخمسين من العمر.. قليل أولـئك الـرجال الذين هاجروا من أوطانهم ولم يعودوا إليها ولو لمرة واحدة، أنا واحـد منهم. لم تكن إنجلترا بديلا مريحا. لكنه كان بديلا محققا للنجاح.. كافحت، شقيت، عانيت الجوع.. لكن لم أصادف أن يعاقبنى أحد على ما يعتمل فى رأسى، أخيرا رأت الجامعة أنى يمكن أن أكون ملائما للانضواء تحت مسيرتها ورسالتها العقلـية، منحتـنى درجات علمية بعد أن أغرقتنى فى عمل شاق، كافأتنى بعدها بوظـيفة تلـيق بعملـى. لم يسألنى أحد كيف فكرت أو لماذا تفكر، ورغم التعب والشـقاء، لم أقف أمام قاضٍ يسألنى بتسفيه لعقلى: هل إبليس جميل بالفعل كما زعمـت..؟ ثـم يزج بى فى السجن. وفى لندن، حين ذهبت إلى "هايد بارك" أول مـرة، كنت محموما، أشحن رأسى بكلمات ساخنة سكنته طويلا، أردت أن أحدث الـناس عن ذلك القاضى اللامبالى البليد الذى عمل على إطفاء وهج عقل شاب لم

يـبلغ الثلاثيـن، لكـنى حين وقفت بركن الخطباء بالحديقة وانضممت إلى جموع المشـاركين، تسربت الكلمات من رأسي، وتملكنى الشعور باللاجدوى والسخف.. القضـية كانـت هـناك فى الوطن، لا فى "هايد بارك".. والوطن هو الإسكندرية المغتصبة..

شـقيت وعشـت، عملت فى مقاهٍ، وحانات، وفنادق، ومنتديات. سكنت مع السـودانيين والهـنود على هامش الحياة الإنجليزية، واحتككت بالصحافة العربية الوافـدة وعرفـت الكثير، عن أهلى وعن مضيفى، وشيئا فشيئا صار لى موضع بأكسـفورد، ولـم أفكر طوال ذلك فى العودة إلى الوطن ولو للزيارة، زيارة ماذا، ومـن..؟ شيئان فحسب ظلا يتناوبان جرح الذاكرة: القاضى اللامبالى وهو ينطق بالكلمـات الـتى أدخلتنى السجن، وعائشة اللعوب وهى تطالعنى بنظرتها الأخيرة البعـيدة المنكسـرة. ولا أزعـم أنـى أثـناء صمودى إزاء مشقة لندن، ولا بعد اسـتقرارى إلـى جـوار سهول أكسفورد، تخليت عن ذاكرة الصبا بالإسكندرية، ومحورهـا علـى الـدوام، كانت عزلتى الحزينة فى بيتنا الفقير بالسيالة مع أمى المكافحة المريضة، وحكايات عائشة العجيبة..

حكت أمى فقالت، لا أنسى ولا أعرف لماذا: بنت نبيهة وعفريتة، لم أر بنتا تشـبهها. أبوهـا الريس بكر كان مجنوناً بها من يوم ما خلفها، كان يطلع الصيد أسـبوع أو عشـرة أيـام، وأول مـا يرجع ما يسألش إلا عنها. ولما نجحت فى الابتدائية سنة الثورة، اشترى لها ساعة، وقدم لها فى الثانوى، أصل البنت كانت نبيهة جدا. صاحبه وحبيبه الريس حمودة سأله: وبعد الثانوى يا ريس بكر، مش حتجوزها..؟ رد عليه وقال: لا. تدخل الجامعة أولا، البنت نبيهة وأحوالنا ميسورة والحمـد لله. يـا خسـارة، ما كملتش تعليمها زى ما تمنى أبوها بسبب شقاوتها ولعـبها. المهم، فى شقاوتها كسرت الساعة، ومن خوفها من أمها وأبوها، دارت على الحكاية وراحت لعم شعبان الساعاتى جنب جامع سيدى "أبو العباس المرسى" وطلبـت مـنه أن يصـلحها، الرجل العجوز أخد منها الساعة وقال لها تعالى بعد يوميـن، بعـد يوميـن راحـت لـه، الرجل الضلالى أنكر أنه أخد منها الساعة

وطردها. البنت ما سكتتش، هيجت عليه كل الناس، ولما سمع أبوها بالحكاية راح له هو وحبيبه الريس حمودة، وبعد يومين تلاتة الرجل خاف ورجّع الساعة بحجة أن البنـــت رمـــتها على البنيكة قدامه من غير ما ياخد باله منها، وفضلت البنت تحكى الحكاية لكل الناس، بنت عفريتة..

تملصت من صمتى أخيرا وأنا جالس فى مواجهة هنرى ستيوارت. قلت إنى فـــى حاجة إلى وقت للتفكير، فعلاقاتى داخل جامعة الإسكندرية ليست بالاتساع أو التأثـــير الذى يظنه، وانتهى حديثى معه عند هذا الحد، وكان متفهما، ولم يستأنف النقاش..

فـــى يوميـــن اتخـــذت قرارى بالسفر وأبلغته لهنرى الذى استقبله بدهشة وفرح، فتشت عن أسباب فلم أعثر فى رأسى إلا على أثر حركة المياه التى ركدت طويـــلا. وشرعت على الفور فى اتخاذ إجراءات السفر. أول ما فكرت فيه ونفذته بـــالفعل: برقـــية أرســـلتها لـــنعمان بن عمى أكلفه فيها باستئجار شقة مفروشة بالإســـكندرية لمـــدة شـــهر. لـــم تكن عل اقاتى بنعمان منقطعة تماما، حملت له أحاسيســـه الرقـــيقة تجـــاهى خـــلال أزمتى القديمة كجميل لا ينسى. وعلى مدى عشـــرين عاما من الغياب، تبادلت معه رسائل شكلية قليلة، عرفت منها موضوع هدم بيتنا لإقامة عمارة جديدة على أرضه، ووفاة عمى، وأيلولة محل العطارة إليه شخصـــيا وتجديده للمحل، ونجاحه فى السنوات الأخيرة، وأبلغته بدورى تطورات أيـــامى.. ولم تحمل تلك الرسائل، على أى حال، قدرا من العواطف يساوى قدر ما بها من أخبار ضئيلة..

كـــنا فى أخريات أيام الصيف المضفرة بأوائل أيام الخريف، وودعت رطوبة إنجلترا الهادئة، فاستقبلتنى أول ما نزلت من الطائرة، رطوبة مصر الخانقة..

(٢)

الحافلـــة الـــتى أنطلقت بنا من أمام مطار القاهرة، توقفت أخيرا فى محطة الـــرمل. غادرناهـــا - أنـــا ومارك - ونزلنا نبحث عن حقائبنا التى شرع عامل المحطة فى إخراجها من مخزن السيارة أسفلها. الوقت الذى وصلنا فيه يدنو من غـــروب يـــوم خريفى مشبع برطوبة توهم بارتفاع درجة الحرارة، ومن بين ذلك الطقـــس المراوغ تسللت إلى خياشيمى رائحة عشب ويود قادمة من ناحية البحر القريـــب.. الإســـكندرية أواخر الصيف وعلى أعتاب الخريف.. لكن الزحام الآن، وعلى مدى البصر، يجعلها تبدو كمخزن مهملات، أَلَقُها يكاد ينقشع..

من وسط المتحلقين بالحافلة عقب وصولها، لفت نظرى شخص يدور بعينيه حول الهابطين منها، يدقق فى الوجوه، عرفته دون التباس بالرغم من الشعيرات البيضـــاء الـــتى انتشرت فى رأسه، نظرت إليه مسددا حدقتى عينى، والتفت هو بدوره وابتسم ببطء، وتقدم كل منا نحو الآخر..

- نعمان..

- حمد الله على السلامة يا دكتور..

وقدمت مارك إليه، فضغط على يده بأدب جم..

داعبته قائلا و ملمحا إلى الشعيرات البيضاء فى رأسه:

- كبرت يا نعمان..

فرد مبتسما:

- الدنيا ما بتسبش حد على حاله يا دكتور..

وانحـــنى على حقائبنا ورفع واحدة منها، ثم أشار إلى سيارة فيات صغيرة

كانت تقف قريبة من موقف الحافلة التى جئنا بها، ووجه الحديث إلى، وإن بدا أنه يوجه اعتذاره لمارك:

- ١٢٨، مش على قدر المقام.. كل ما خرجت به من كفاح العمــر..

تغاضيت عن اعتذاره المتكلف، وقلت وأنا أتطلع إلى تكدس السيارات بمحطة الرمل واختلال حركة مرور الناس والمركبات:

- أشياء كثيرة تغيرت يا نعمان..

فإذا به يرد وهو يتقدمنا نحو السيارة:

- إلى الأسوأ بالطبع..

ثم أكمل:

- الناس تزداد تعاسة يا دكتور..

لم أعلق، وغرقت فى شرود. وفى شرودى، تفجر فى رأسى سؤال كالقذيفة: لماذا جئت..؟

بينما نعمان يجاهد بسيارته كى ينفلت من زحام محطة الرمل، وقبل أن أسأله عن وجهته، سبقنى مارك وتساءل وهو يقلب فى يده خريطة سياحية:

- محطة الرمل.. أليست الحى الملكى فى عصر البطالمة..؟

أجبته:

- يجوز.. يقال إن قصور كليوباترا والبطالمة كانت هنا.. وعلى مسافة قريبة من هنا أيضا، قيل إن مطاردة هيباثيا وتمزيق جثتها جرت هنا .. رهبان المسيحية المتوحشون الذين قتلوها هم أجداد من يزحمون المكان الآن، ومعهم أحفاد العرب الفاتحين والبدو الذين اختلطوا بهم..

وتوقفت ثم أكملت:

- لم يبق على أى حال سوى الأسماء.. سوتر وكليوباترا، إلى آخره..

كـــان نعمان أثناء ذلك يقود سيارته، التى تملص بها من محطة الرمل، فى اتجـــاه منطقة الرمل، محاذيا كورنيش البحر، معرجا إلى شارع بورسعيد الموازى للبحر. سألته:

- إلى أين يا نعمان..؟

أجاب:

- إلى مصطفى كامل يا دكتور..

ثم تطوع بالشرح..

- الجـيش استغنى عن معسكراته داخل المدينة بعد حرب أكتوبر، واستثمر الأرض الهائلـــة الـــتى خلت. وبنى عليها مجموعة من العمارات الفخمة لإسكان الضـــباط، جـــزء من تلك العمارات تؤجر للمدنيين.. استأجرت لك شقة جميلة فى عمارة منها، تطل مباشرة على البحر..

بعد دقائق قليلة كنا قد اخترقنا المجمع السكنى، ودرنا حول بعض العمارات الأنـــيقة، ثم توقف نعمان بسيارته بجوار عمارة تقع فوق ربوة قريبة من شاطئ الـــبحر. الأرض كلها مسفلتة ونظيفة، والخضرة والأشجار متناثرة حول المكان. غادرنا السيارة، وحملنا حقائبنا، وتبعنا نعمان إلى داخل العمارة..

الشـــقة التى استأجرها نعمان تقع بالدور الرابع، متسعة ومريحة، بها غير المدخل ثلاث حجرات وشرفتان على البحر. قلت لمارك بعد أن درنا بين حجراتها وعاينا أثاثها الحديث البسيط الموفى بالغرض:

- ستســـكن معى لحين أن أعود إلى إنجلترا، أو تدبر لك الجامعة سكنا آخر إن أردت. بهذا أكون قد وفيت بوصية أبيك، وغدا نذهب إلى كلية الآداب لنستكمل إجراءات التحاقك بمركز تعليم اللغة العربية..

بعدهـــا ألـــح نعمـــان فى دعوتنا إلى العشاء، لكنا - أنا ومارك - اعتذرنا وتعللنا بحاجتنا إلى الراحة، وطلبنا إرجاء الدعوة. وانصرف نعمان على وعد منى بزيارته ببحرى..

بعد انصراف نعمان، وقفت وحدى بإحدى شرفات الشقة أتطلع إلى البحر، لا أرى غــير فضاء ممتد فى الظلمة تنعكس عليه إضاءات خافتة صادرة عن مبانى الأنديـــة المبعثرة على الشاطئ، وذبالات ضوء تلمع على البعد. كان مارك قد قال لى، قبل أن ينشغل بترتيب أغراضه داخل الغرفة التى اتفقنا على تخصيصها له:

- شيء عجيب بروفيسور.. لا أشعر أنى غريب عن وطنى..

وقلـــت له دون أن أسمعه: أما أنا فلا أشعر أنى حاضر فى وطنى. غير أنى داعبته بصوت مسموع، وقلت:

- هذا يعنى أن أرواح أجدادك تحيط بك صاعدة من أرض المكان الذى تقف عليه..

تساءل بدهشة:

- أجدادى؟؟

أجبته مبتسما:

أجــل.. الذين أتوا إلى هنا منذ أكثر من قرن من الزمان، وضربوا المديـــنة بمدافـــع الأســطول الــبحرى، واحتلوها، وعسكروا فى نفس هذا المكان.. ألم تقرأ ذلك فى كتب مدارسكم..؟

طلب أن أحكى له القصة، فقلت:

- وقت آخر يا مارك.. ولم يكن ذلك بجديد على مصر على أى حال.. حدث مرات عديدة على مدى تاريخها، لم يقتصر على أجدادك وحدهم..

وشـــردت فـــى معـــانى الغـــربة والحضـــور وأنا مستغرق فى ظلمة البحر المتلاشى..

أول الـــنفى.. علـــى الجانب الآخر البارد هبطت. انتظرت الشمس أياما، فلم تــأت. فـــى الســـيالة، عبر عمرى كله، تعودت الموازنة بين الألق والعتمة، كنت أعشـــق الشـــمس الوضـــاءة وهـــى تنساب من وراء أفق البحر وتغمر الشوارع والبـــيوت. بمـــثل ما كنت أستكين للحزن النقى الذى يوحى به شتاء الإسكندرية

الهـادئ الجلى، حتى أيام العواصف والنوات، حين كنت أختبئ وراء زجاج نوافذ بيتـنا، أرقـب المطـر والريح، مترقبا سطوع الشمس من جديد على كون صقله المطر..

تلك كانت توازناتى التى جعلت دنياى أكثر احتمالا. لكن الشمس هناك ظلت مختفـية أياما طويلة وسفنى كانت قد أحرقت. صمدت، ورحت أتجنب بإصرار لا مفـر أمـامى غيره، السؤال العويص: هل أعود، وكيف أعود، ولماذا أعود؟ صار السـؤال تـرفا لا أستحق أن أسأله حتى اندثر فى قلبى وعقلى ونسيته مع الأيام، نفضته من رأسى إلى أن نسيته، مخلوق بلا وطن، اليهودى التائه أكثر [illegible] منى، لديـه ذاكـرة وحلم. أتحرك وأسعى كحيوان برى، انحيازى الضارب فى [illegible] لسلطة الفطرة أعاننى.. العمل فحسب، عمل لم أتبرأ منه، يوفر طعاما [illegible] وسـكنا يحمـى من البرد ويعفى من الضياع.. نصائح وتوصيات أستـ[illegible] الجامعة الإسـكندرية لـم تُجْـدِ، لـم أعثر على أحد ممن بحثت عنهم، لم يسـ[illegible] اكتشفت أنى وحيد كفأر، أنتقل من عمل غير مهم إلى عمل مشابه. أوقـ[illegible] وحدهـا هى التى أضافت قيمة ومتعة، وحافظت على توازن قدمى.. أقر[illegible] مـا تيسر الحصول عليه من مطبوعات وكتب، بتوفير بعض البنسات [illegible] السـيرىء التعيس، أقرأ بلا قصد وبلا غاية وبلا خطة، مجرد إرضاء [illegible] تعلقـت بهـا منذ صباى، أنام وأستيقظ لأواصل ما انقطع بالأمس.. تجلد [illegible] تلاشى ألم المعاناة، حتى الحزن بـُدد وضاع. تعودت، حتى صار الاستمرار عونا وسلوى..

محمد مصطفى سامى.. هكذا عرفنى باسمه أول مـ[illegible] تقابلنا. ظل يرقُبنى دون أن ألحظ، وأنا أدور بين الموائد: اعترف لى بعد أن اقتربت منه ألبى طلبه. سألنى بابتسـامة باهـتة تـدارى هما راسخا: أنت مصرى..؟ أجبته بتلقائية وبالعربية: إسـكندرانى. تأملنى لحظة، ثم أفاض فى الاستفسار. التقيته مرتين بعد ذلك، فى نفـس المكان ونفس الظرف: قصير أميل إلى الربعة، فى الخامسة والأربعين [illegible] وجـه ممـيز الملامـح ورأس مربع التكوين.. قال إنه يعمل أستاذا بقسم [illegible]

الشـــرقية بأكسفورد. لم يستغرق الأمر طويلا كى نتعارف. دفعت إليه فى المقابلة الثانـــية بالنســخة الوحـــيدة من كتابى الذى تسبب فى محنتى، قائلا إنها النسخة اليتـــيمة التى بحوزتى وأنى أرجو استعادتها سواء تمكن من قراءتها أم لم يسمح وقـــته. بقـــى بالفـــندق المتواضـــع الـــذى كنت أعمل به، ثلاث ليال، قبل رحيله استدعانى إلى غرفته، قال بإيجاز أنه قرأ كتابى الفج، ولم يضف شيئا إلى الصفة الـــتى ألحقها بالكتاب. وناولنى بطاقة عليها اسم وعنوان وأرقام تليفونات، وقال بنـــبرة جمعـــت بين النصيحة والأمر: تعال إلى أكسفورد. بعد رحيله فكرت كثيرا وترددت مرات، كتبت له أخيرا على العنوان الذى تركه معى. كتبت: لم يبق عندى شـــىء، لا وطـــن ينـاديـــنى ولا تحـــد أو استجابة عليه، الوطن ليس بحاجة إلى، وغربـــتى التى كانت به تعبير دقيق عن غربتى فى العالم، والحقيقة الوحيدة التى أطلت على حياتى ولا زلت أراها هى أفواه القبور التى ابتلعت أبى ثم أمى من بعده ولازالـــت تبتلع كل من على ظهر الأرض. بعد عشرة أيام وصلنى منه رد: الهراء الـــذى أرســـلته إلـــى لا يعنينى، يعنيك وحدك فى المقام الأول. تستطيع أن تعمق رؤيـــتك إن أردت. تعال إلى أكسفورد. وبوسعى أن أساعدك فى استكمال دراستك ونيل درجة علمية وأشرف على ذلك بنفسى، العمل سيكون شاقا، وهل هناك أكثر مشـــقة مما أنت فيه؟ هناك احتمال على الأقل لأن تحصل على إجابات على أسئلة سكنت صدرك ورأسك طويلا وباتت تهددهما بالبوار.. إن شئت أن تأتى فعجل ولا تتأخر، الوقت محسوب عليك..

أغادر لندن إلى أكسفورد. محمد مصطفى سامى يفى بوعوده.. ساعدنى فى إجـــراءات الدرس وساعدنى فى الحصول على عمل أرتزق منه، لم يختلف كثيرا عن الأعمال التى مارستها منذ وصلت. لكنى أخيرا بدأت أتلمس طرف خيط ينتهى عـــند معنى، أراه مجسدا أمامى: غربة هادئة، صلبة، مستقرة.. هى الآن متاعى الـــذى أحملـــه فـــوق ظهرى وأنا أزور وطنى القديم، متدثرا برداء سائح لا يرى الأشـــياء لأول مرة.. سائح تحركت المياه فى جذوره، يتمنى أن يرى الأشياء مرة ثانية، لعله يضيف مراجعة أخيرة إلى موقفه.

(٣)

دفقـــة ضوء سخية انصبت فوق رأسى ففتحت عينى مسحورا.. ما الأمس، وأى صـــباح، وكيف نمت؟.. باغتنى الصباح، إثر نوم عميق لم أنم مثله منذ زمن طويل، نوم مثل الشبع، أو لعله مثل الإغماء، ونافذة الغرفة مفتوحة على غير ما تعـــودت وحرصت، تسمح بحلول صباح كان مسافرا وآب إلى مرفأ مريح. صباح مباغـــت، قد يغدو مخادعا، إذا ظل السؤال بلا إجابة: كيف ارتضى أناس يغمرهم كل هذا الضوء أن ينحوا عقولهم ويحبسوها داخل ظلام الكهوف؟

فـــى مـــرقدى، شعرت بحركة خارج الغرفة، فنهضت. فتحت الباب وأطللت على مدخل الشقة، ورأيت مارك قد سبقنى إلى الاستيقاظ وارتدى ملابس الخروج، وأخـــذ يـــتجول فى الشقة. لما شاهدنى ألقى بتحية الصباح وأردف بفرح، نظراته تهيم فى فضاء سطح البحر العريض الذى تنسكب عليه أشعة الشمس الذهبية:

- صباح جميل بروفيسور..

قلت مبتسما وقد اكتملت إفاقتى:

- أرواح أجدادك تحسدك.. جاءوا ومعهم المدافع فلم يستمتعوا وعاشوا فى خوف، وتأتى أنت اليوم تحمل الكتب فتطل عليك الشمس مرحبة..

واســـتأذنت في أن أغيب عنه لدقائق، أقضى خلالها شئونى الخاصة وأبدل ملابسى..

غادرنـــا مسكننا، وتمشينا بجوار البحر نبحث عن كافيتريا أو مطعم نتناول فـــيه إفطارنـــا، كان مارك سعيدا وفرحا كطفل، قال وهو يستمتع بشمس الصباح الساطعة:

- شمس الشرق الساحرة..

قلت منبها:

- أحيانا تكون الحارقة يا مارك..

توقف عن السير. قال بشيء من عدم الاقتناع:

- بروفيسور.. لماذا هاجرت من مصر..؟

كنا قد اقتربنا من كازينو "لاكورتا" القائم فوق رمال شاطئ البحر، فجذبت مارك من ساعده بحركة تلقائية، وأنا أقول:

- تلك حكاية قد تفقدك هناءك الذى تسبح فيه الآن..

وصعدت به درجات بناية الكازينو المرتفعة، وأنا أكمل:

- الأهم ان تتناول فطورك وتحتسى قهوتك وإلا شكوتنى لأبيك..

غير أننى تباطأت بالتدريج فى صعود ما تبقى من درجات البناية، غزانى ندم مفاجئ بعد أن استبدت بى ذكرى قديمة خاطفة. وحين وطأت قدماى مدخل قاعة الجلوس بالكازينو، وجدناها خاوية إلا من المقاعد والموائد ونفر أو اثنين من السقاة. جلسنا إلى أقرب مائدة، وهرول الساقى نحونا، وأمليناه عليه طلباتنا، وبعد انصرافه كان الوجوم قد تمكن من صفحة وجهى الذى كان مكتسيا بالمرح منذ دقائق. أثناء انتظارنا دخل إلى القاعة شاب وفتاة، وانتحيا مكانا بجوار نافذة تطل على البحر. ابتسم مارك، وقال ببراءة:

- كنت تأتى مع فتاتك إلى هنا بروفيسور أثناء شبابك.. هل أنا على حق..؟

فنهرته وهربت إلى الكذب والمداراة..

- فى شبابى يا مارك كنا نأتى إلى هنا لنتحدث فى السياسة والفلسفة والأدب، مع صحبة من عجائز المثقفين.. تماما مثل حالك معى الآن..

وكان الساقى قد عاد بالقهوة وقطع الجاتوه وشرائح الكيك، فانهمك مارك على الفور فى تناول فطوره، وأعفانى من ثرثراته. كنت أميل برأسى فوق سطح

المــائدة، وحيــن رفعــت فــنجان القهوة لأحتسى الرشفة الأولى ارتفعت عيناى فاصــطدمت بالشــمس المــنهمرة مــن النافذة المواجهة لجلستى. تشتت بصرى باصــطدامه بأشعة الشمس. غيرت اتجاه نظرى، أرسلته نحو مجلس مارك. لكنى لــم أجده. لثوان، وعبر رؤية مغبشة، رأيت وجه عائشة وهى تبتسم، ابتسامتها الماكــرة التى سكنت قلبى من زمن سحيق. ولما عاد مارك إلى استئناف ثرثرته، قلت لــه دون أن أسمعه مرة أخرى: أجل يا مارك، كانت لى فتاة، وكنت آتى بها إلــى هــنا، لكــنها لم تجد فىّ فتى لأحلامها، ولم تكن صريحة.. تلاعبت بى فى الــبداية، ثــم هربت منى.. كانت من بنات شمس الشرق الساحرة التى أبهجتك.. وعلى نقيض الشمس، ظلت.. حتى آخر لقاء بها.. مستودّعا للأسرار..

انتهينا من فطورنا وقهوتنا وانصرفنا على الفور. انتقلنا بسيارة تاكسى إلى كلية الآداب بالشاطبى. عرفت البناية والبوابة، لم يلحقهما تغيير يذكر منذ تر[illegible] فى منتصف الستينيات، عدا بعض البنايات التى جاورتها عن يمين أو عن يسار لا أعــرف متى استحدثت، خلال وجودى أم بعد رحيلى. المكان مألوف لدى [illegible] أى حــال، غير أننى وأنا أتقدم – وبصحبتى مارك – نحو مدخل البناية، دق قلبى فــى وجل، واكتنفنى إحساس بخوف مبهم، خوف طفل يقتاد إلى مكان على غير إرادته.. لعنة الله على مارك وأبيه الذى ورطنى فى مهمة جليس أطفال. غير أنى فــى الحال نفسه، لعنت نفسى، إذ لم يجبرنى أحد، جئت إلى هنا بنفسى، وبدوافع متضــاربة غــير واضــحة ويقيــن مشوش [illegible] خائف ممن؟ لا أحد هنا يعرفنى أو يتذكرنى، أنا ماض مهمل منكور. لا يهمهم [illegible] فى [illegible]

مــع ذلــك اقتحمت البناية أقود مارك، و[illegible] إلى قسم الفلسفة وفى نيتى البحث عن أستاذى القديم الذى دفعنى إلى السفر إبان محنتى، متطلعا إلى أن أجد فــيه دلــيلا لى فى مهمتى التى ورطت نفسى بها. ممرات البناية كما هى، لكن مكاتــب الأساتذة اختلفت، لم أعثر على أستاذى. سعيت مرتين أستطلع ما بداخل الحجــرات، وأخــيرا تجرأت وسألت من رأيته فى مواجهتى: مخلوق كاريكاتورى المظهــر، يسند ظهره إلى مكتب خال من غيره، طويل بصورة رأيتها غير عادية

وأكــثر ممـــا ينبغى، متأنق بفظاظة، سألته عن أستاذى فنظر إلى بإنكار، وكأنى أخطأت فى حقه، قال وفى نبرته تحقير غير مبرر:

- شكلك يقول إنك لست من هنا..

ثم تطلع إلى مارك وسأل:

- باين عليك مندوب شركة سياحية..

أوجعتنى طريقة كلامه مضافة إلى مظهره. قلت فى تحد طارئ لم أعهده فى نفسى من زمن طويل:

- عفوا.. أنا من جامعة أكسفورد..

وذكرت اسمى مجردا من الألقاب، لكنى أضفت بوازع التحدى:

- أستاذ دراسات شرقية..

تخلخلت الهيئة الكاريكاتورية للرجل، وتجسمت أكثر دلالة. حملق فىّ برهة، ثم تراجع كى يسمح لى بدخول مكتبه، قائلا فى تكرار أبله سمج:

- أهلا وسهلا..

قدمـــت مـــارك، ودخلنا، وجلسنا. قدم نفسه فور أن جلسنا، اسمه وعمله: أســـتاذ فلســـفة إســـلامية، ثم انتقل إلى المفاجأة التى لم أكن أتوقعها: البقية فى حياتى، أستاذى غادر عالمنا منذ سنوات إثر أزمة قلبية، وأردف بتودد مبالغ فيه ومـــناقض لجهامة استقباله لنا أنه فى الخدمة وتحت أمرنا. استوعبت صدمة نبأ مـــوت أســـتاذى سريعا كارها الموقف بأكمله، وانتقلت مباشرة إلى السؤال التالى عن مركز تعليم اللغة العربية للأجانب، فقال بلهفة:

- رئيسه تجده بقسم اللغة العربية، سآتى معكم..

شـــكرته ولم أستجب لإلحاحاته واندفعت مصطحبا مارك خارجا من مكتبه، متجها إلى قسم اللغة العربية.

من ورائى سمعته يقول:

- لم نتعارف بعد يا دكتور.. لم نتبادل التليفونات على الأقل..

لم أرد، إنما - بينى وبين نفسى - ترحمت على طه حسين منشئ الكلية..

فى قسم اللغة العربية لم نجد رئيس المركز، قيل لنا: موجود بالمركز خارج الكلية، بناية صغيرة حديثة بالقرب من بناية الكلية، مكان الكافيتريا القديمة. نزلنا وذهبنا إلى البناية الجديدة. قابلنا رئيس المركز. تعارفنا. رحب بنا بود حقيقى. رجل رقيق ومهذب. استنبطت من كلامه أنه خريج لغة عربية فى نفس عام تخرجى. لم أرحب بالإسهاب بالحديث عن ماضىّ، واكتفيت بذكر تخرجى بنفس الكلية. أوصيته بمارك فبدأ على الفور فى مراجعة إجراءات التحاقه بالمركز، وشرع مارك بدوره فى استخدام عربيته المحدودة التى تعلمها بأكسفورد. قلت له مشجعا ومتملصا من ضيق صدر ازداد ضغطه علىّ:

- رائع يا مارك، لم تعد فى حاجة إلىّ بعد.. هل أستطيع أن أتركك الآن تكمل إجراءاتك بنفسك؟ عندى بعض الزيارات ينبغى أن أنجزها، على أن نلتقى بالبيت مساء..

رد مارك بسرور:

- كنت سأطلب ذلك بنفسى بروفيسور..

شرحت له كيف يعود إلى البيت، وشكرت رئيس المركز، ومشيت.. إلى أين..؟ لا وجهة ولا قصد مسبق.. فقط، ضيق صدر بلغ مداه.

(٤)

أى سـخف..؟ فـى أول خطوة أخطوها أقطع الاتصال واستسلم للسأم. أهو مكتسـب من بيئة اجتماعية مختلفة، أم لعلها طبيعتى التى تؤثر دوما ما قل ودل. هـناك فـى المجتمع الإنجليزى الذى تعايشت معه وتعايش معى، فهموا ذلك عنى وتعـاملوا معـى بيسر، فى الجامعة، فى الشارع والأسواق، فى علاقات التعارف المتصـلة بالعمل. لذلك لم أفهم سؤال هنرى ستيوارت أن أرافق ولده فى زيارته الأولى لمصر. يعرف هنرى بالطبع أن ألوفا من الشباب يتركون ديارهم كل صباح كـى يدورون حول العالم، فى دراسة، فى سياحة، وراء فرص عمل، ومنهم من يسـتقر حيـث تحط به الرحال، ومنهم من يرجع إلى دياره بعد أن يكتسب خبرة وصـلابة. فلماذا دفع بولده إلى صحبة رجل مثلى يعرفه جد المعرفة..؟ من باب الحمايـة..؟ هو نفسه ذكر أن مصر آمنة أيامنا هذه. أُنْساً..؟ بئس الأنيس. المهم علـى أى حال أنى جئت، فلماذا جئت..؟ أقطع آلاف الأميال كى أجىء وأسأل لماذا جئـت..؟ هـل كان حنينا حقا، للأرض والناس، كما استفزنى هنرى ستيوارت..؟ ومتى استيقظ ذلك الحنين من غفوته التى طالت، ولماذا، وكيف؟؟ بل كيف تحركت المياه فى الجذور، كما بررت لنفسى- عجزا عن الفهم - ساعة اتخذت القرار..؟ الجـذور أصـلا أجدبت وتهرأت، لم يبق إذن غير حب الاستطلاع.. سياحة حول مكان غير مجهول، سخف.. سخف.. لكن، من يدرى، ربما كشف عن جديد، حتى لو انتهى إلى مجرد مراجعة أخيرة..

فـى تقدمـى نحو شاطئ البحر بالشاطبى، مخلفا ورائى بناية كلية الآداب، وتحـت شمس بدأت حرارتها ترتفع، شاهدت سيارة تاكسى خالية تحاذى الشاطئ فـى اتجـاه قلب المدينة. أشرت من بعيد، فلمحنى قائدها وتوقف. عبرت طريق الكورنيش وقلت للسائق لما اقتربت:

- بحــرى..

وكنت قد قررت لتوى زيارة نعمان فى محله..

طلبت من سائق التاكسى أن ينزلنى بالقرب من مسجد أبى العباس، وترجلت بعـد وصولى مخترقا ساحة المسجد متجها نحو السيالة. المبانى التركية القديمة هدمـت، و تركـت أنقاضها مكومة وسط خرابات، تحيط بها أكوام القمامة، وعن يمين ويسار، تصاعدت عمارات سكنية رديئة المنظر ليس بينها وبين ما يجاورها انسجام أو نسق. مشيت.. المرئيات تلامس نظرى كأنى أشاهدها من خلف ضباب، مشـوهة، أو مطموسـة كأنى أراها فى مشهد غفوة كابوسية.. هل أمضيت هنا بـالفعل صـباى وشبابى، ومتى..؟ الذكريات غائرة، يطويها جب عميق فلا تكاد تبين..

فتشت عن محل العطارة موغلا فى السيالة.. المحلات متلاصقة ومتشابهة، عشـوائية ملفوفـة بالرداءة وسط بقايا العمارات التركية القديمة، ذهبت الأبواب الخشـبية والـنوافذ والمشـربيات، ما بقى تكسرت أخشابه وتآكلت.. حل محلها أسـمنت قبـيح وزجـاج وإطـارات ألومنيوم وبلاستيك، اختفت لمسات الصنعة المعماريـة الماهرة. قلت أثناء مشيى: تلك بيئة فنية كان ينبغى ترميمها والحفاظ عليها، ألم يكن ذلك أجدى من محاكمة شاب بشبهة إضفاء الجمال على إبليس..؟

أوقفـنى شـك متسائل بالقرب من محل اصطفت أمام مدخله أجولة العطارة وسـط أكـداس مـن سـلع أخرى تكفى لملء سعة محل غيره: صناديق معلبات وصـابون غسيل آلى وبسكويت وشيبسى.. أهذا محلنا..؟ إن كان هو، فقدساير نعمـان المتغيرات، وأثبت أنه جدير بالاستمرار. لكن أين نعمان..؟ لا ألمحه وسط الفـراغ الـذى تبقى من زحمة السلع. تقدمت خطوة.. من بين إعلانات الصابون الآلـى والشيبسى، لمحت وجها نضرا يشبهه، يطل من فوق سطح بنيكة تتصدر مدخـل المحل من الداخل، منهمكا فى حديث حميم مع شخص يقف فى مواجهته. أهو ولده..؟ تقدم نعمان فى السن وصار له ولد. وربما أولاد. ساير نعمان السائد واستمر ونجح، عاش بسيطا ولم يسأل كثيرا..

فى وقفتى رأيت عمى، يرحمه الله، وسمعته، فى نفس المكان ونفس الموقع الــذى يطل منه حفيده: اسمع يا بنى ، إحنا ناس غلابة، نجرى على رزقنا ورزق أولادنـــا، وأبــوك الله يــرحمه لو عاش كان بقى واحد منا. حكومة عبد الناصر حبســتك للكلام الكفر اللى أنت كتبته، إنت حر طبعا فى دماغك، ملعون العلم اللى وصــلك لكده، إنت ابننا والدم دمنا. إنما إيه نقدر نعمله..؟ الحكومة اللى حبستك هــى نفس الحكومة اللى سدت الرزق فى وشنا.. اتفضل، تعال أقعد هنا مع أخوك نعمــان، واللــى يجــرى علينا يجرى عليك، وإذا كان ده مش مناسب لك وعاوز تتخارج أنا تحت أمرك، أبوك مشى وترك لك أمانة فى ذمتى..

الذكرى الغائرة تنبثق من غور البئر العميق. عمى كان رجلا بسيطا، وابنه شــابهه، استجاب كل منهما لإرادة الحياة. غير أنى- قلت- لم أكن مختلفا عنهما كثــيرا.. فــى ظــرف معــاكس، متسائلا عن أب مفقود، أين ذهب؟ وأم مريضة مكافحــة، مكافحة من أجل ماذا؟ أسلمت نفسى بدورى.. وبنفس البساطة.. لإرادة القلق والسؤال، ودفعت الثمن كاملا، بلا شكوى. بلا تذمر..

ويــبدو أن وقفتى طالت بحيث لحظنى الفتى من موقعه، رأيته ينهى حديثه بعــد أن ودع مــن كان يحادثه، ويحدق فى مستفسرا بصمت عن وقفتى، تقدمت حــتى اقتربــت منه وألقيت التحية، وسألت عن نعمان. نهض من مكانه بأدب جم ورحب بى ذاكرا اسمى باستفسار متسائل، ابتسمت وأنا أؤكد له صحة استنتاجه، فــتهلل ثم اعتذر بما تأكدت منه أنه ابن نعمان بالفعل وأن والده غائب فى جولة بالســوق وسوف يرجع فى غضون ساعة، ودعانى إلى الانتظار فى ضيافته وألح فــى دعوتــه. شكرته وتعللت برغبة فى التجوال بالمكان، ووعدته إزاء إلحاحاته بــالعودة بعــد ســاعة، وعــدت إلى استئناف مشيتى الفاحصة.. وأثناء السؤال والإجابــة، كنت قد علمت: أكبر أبناء نعمان، طالب بكلية التجارة.. وقلت: رعاك الله يا نعمان، أنت تستحق..

مشيت، وعند تفرع الأزقة من السيالة، شاهدت العمارة المسخ التى انتصبت

فـــى موقـــع بيتـــنا. لم أدقق كثيرا، شعرت بقرف ساكن كأن الأمر لم يعد يعنينى، ونحيت وجهى نحو البحر القريب. مشيت حتى خرجت من السيالة كلها واستقبلت فضاء البحر، فوق صفحته الرائقة تناثرت مراكب الصيادين الصغيرة حول مركبين كبيريـــن.. أيهمـــا بلانس الريس بكر..؟ وأطلت عائشة كومضة، فقفز بصرى إلى رصـــيف البحر هربا، وفوجئت بمبنى صغير ذى مأذنة لم يكن فى موقعه إبان أن رحلـــت: مســـجد فوق رصيف البحر، متى بنى ومن بناه..؟ تقدمت نحو المسجد أتفحصه، ووجدت إلى يسارى مقهى أنيق يحتل زاوية مفترق الطريق الذى ينحدر مـــن الأنفوشى إلى رأس التين، خطوت خطوات، ووجدت مائدة ليس إلى جوارها أحد، فجلست..مع أن الشمس كانت قد توقدت، إلا أن نسمات حانية داعبت وجهى وأنـــا أتخـــذ مقعدى، عند واجهة المقهى. النسمات أتت من وراء المسجد الجديد الواقع على شاطئ البحر، منسلة من ميناء الصيادين الذى كنت أعرف منذ صباى أنه يموج بالحركة هناك. تطلعت إلى السماء فوقى، وشاهدت رغم صفائها ووقدة الشمس، سحاباتٍ بيضاءَ تركض وسط فضائها الناصع..

علـــى غـــير ما بدأت متخبطا أعانى من السأم، فى أول نهار يمر علىّ فوق أرض مدينـــتى التى هجرتنى وهجرتها، داخلتنى بهجة لم أتوقعها ولم أفسرها، لم يكن لدى أصلا أسباب تفسرها. موقع المقهى، عند زاوية الطريق مطلا منها على الـــبحر، كـــان يسمح بامتداد الرؤية إلى الأمام ونحو اليسار، ويقارب النظر نحو اليميـــن، حيث تجمعات الصيادين ومراكبهم الراسية فى الميناء، وافدة من البحر العـــريض أو متأهـــبة للمغادرة إلى ما وراء اتساعه الذائب فى الأفق. وتخلخلت عيـــناى بين السيارات التى تجرى أمامى، ذهابا وإيابا، وعربات اليد الخارجة من بوابـــة الميـــناء الصغيرة تحمل طاولات السمك ساعية إلى "الحلقة" حيث معرض البـــيع، يجـــرها ويمشـــى بجوارها شباب فتِيّ.. كانت تأسرنى أيام أن كنت هنا، عافيـــتهم الظاهـــرة علـــى وجوههـــم وســـواعدهم القوية.. هؤلاء رجال بحرى المعروفون- أو من بقى منهم - بسراويلهم المنتفخة السوداء وقاماتهم المفرودة التى تضج بالعافية..

واحـــد من أولئك الساعين مع عربات اليد المحملة بطاولات الأسماك، رأيته

مــن على البعد يشيح بيده، يكاد جسمه يتفجر غضبا، يتوقف، ثم يمضى أكثر من مــرة، ثــم لــم يلبــث أن انخلع من ركبه، وشاهدته يعرج متجها نحو المقهى، وبالتحديد ناحيتي. حين اقترب مني ووقعت عيناى عليه، أيقنت أنى كنت أعرفه.. مــتى أو أيــن..؟ الذاكرة المعطوبة لا تسعف. سحب المقعد المجاور لمائدتى فى الناحــية المقابلــة لجلستي، وجلس بعد أن استأذن منى، وهو يســمعنى - دون قصد - أنفاس غضبه. جاء ساقى المقهى وراءه ووجه إليه حديثه:

- وحد الله يا ريس عليوة..

التفت إليه، وزفر، وقال بنبرة جريح:

- خــلاص مــا لناش عيش فى بحرى.. الصنعة ما بقيتش صنعتنا.. اللى كــانوا صــيّع وخطافيــن بقوا معلمين كبار والخونة بيساعدوهم.. أولاد الأكابر ما لهومش عيش فى بحرى، آه يا زمــن..

راح ساقى المقهى يهدئه، ثم قال إنه سيأتى بالشاى حالا، وسألنى بالمناسبة عــن طلــبى بعد أن دقق فى وجهى برهة. وطلبت قهوتى المُرّة، على حين كان رأسى يقلب فى داخله أمورا شتى..

مــن المؤكد أنه هو: هو بعينه.. عليوة؟؟ ربيب حمودة وابن شقيقه.. كان شــابا فى ريعان شبابه حين رحلت، و الآن أراه فى الأربعين وربما جاوزها. كنت أعــرفه وكــان يعرفنى وإن لم تجمعنا صداقة، وأقبل علىّ الآن غاضبا وبمحض صدفة. لم يتذكرنى مؤكداً، فمن منا الذى اختلف: هو أم أنا؟

(٥)

قال نعمان لما رجعت إلى محله، والتقينا:

– لك عندنا أكلة سمك ما كلتهاش فى بلاد الإنجليز ومش حتاكلها..

فلما بان على وجهى الحرج، وحاولت الامتناع، أشار إلى ولده قائلا:

– سبق السيف العذل يا دكتور.. ما تحاولش.. سبقنا وأبلغ والدته..

تفرست فى وجه نعمان. طيبة وتسليم واستقرار، ما أشقى المتسائلين المتمردين. ولم تكن غضبة عليوة التى صادفتنى وأنا جالس بالمقهى قد زايلتنى، وإن لم ألم بأسبابها الدفينة، غادرت المقهى دون أن أفهم ودون أن أجرؤ على السؤال. ولما انفردت بنعمان بعد الغداء حكيت له الحكاية وسألته متعمدا جذب أطراف حديث يقلقل رأسى:

– أليس عليوة هذا هو ابن شقيق الريس حمودة..؟

أجاب نعمان:

– أكتر يا دكتور.. هو الذى رباه بعد وفاة أبيه، وعلمه مهنة الصيد..

تماديت فى السؤال متجرئا..

– وما هى أخبار الريس حمودة..؟

قال نعمان متنهدا:

– ياه.. تعيش أنت يا دكتور..

المفاجأة التى ولدتها إجابة نعمان، لم تكن مثيرة، بقدر ما أثارت كوامن فى نفسى كنت أظن أنها تلاشت حتى العدم. سألت تلقائيا بلا تدبير:

- وزوجته..؟

تحير نعمان برهة، ثم قال:

- لعلك تقصد زوجته الثانية، لأن الأولى ماتت من زمان..

قلت بجرأة أشد:

- طبعا.. أقصد الثانية.. عائشة..

عندئذ، شاهدت نعمان يضحك، ويقول:

- موجودة يا سيدى، وبقت معلمة قد الدنيا..

وشرع فى الحكى: بعد وفاة زوجها، ووالدها الريس بكر من بعده بنحو عامين، شحطت مركب الريس بكر أثناء رحلة من رحلات الصيد. لم ترتبك ولم تضطرب، أمرت رجال المركب الذين كانوا تحت إمرتها خلفا لأبيها بفك الماكينات من جسم المركب وباعتها، واستغلت الدكانة التى كان أبوها يدير منها أعماله فى أيامه الأخيرة فى تجارة الأسماك، خاصة وأن الدكانة تقع أمام حلقة السمك مباشرة. وأضاف نعمان فى النهاية:

- بقت معلمة كبيرة ما شاء الله، وتمول أصحاب المراكب وتستولى فى المقابل على أكبر حصص الصيد هى وشريكها المعلم سلامة.. تجارة السمك فى بحرى كلها صارت الآن فى أيدى حوتين كبيرين: المعلمة عائشة والمعلم سلامة..

لفورى، ومن خلال حديث نعمان بدأت أفك أسرار كلام عليوة الذى تفوه به أثناء غضبه وهو جالس إلى جوارى بالصدفة فى المقهى. كان يردد: الصنعة ما بقتش صنعتنا، اللى كانوا صيع وخطافين بقوا معلمين، الخونة بيساعدوهم، وعبارة أخرى ترددت على لسانه لم أفهم مقصده منها: المعلمة الضلالية. من..؟ عائشة بالتأكيد.

مع حديث نعمان ومعرفتى القديمة لأهل بحرى والأنفوشى، لا تحتمل البيئة

الاجتماعـية هـنا أكـثر من معلمة واحدة.. غير أن السؤال القديم قفز من غور الذاكرة الراكدة لا أعرف لماذا.. واستقر ملحا فى تجويف رأسى: لماذا تزوجته؟

قلت لنعمان مناورا:

- سـبحان مغير الأحوال.. أبوها كان يحلم بإدخالها الجامعة وتنتهى تاجرة سمك..

عقب نعمان بسلامة نية:

- خيبت أمل أبوها ومكملتش تعليمها بعد الإعدادية بالرغم من نباهتها..

غمغمت متماديا فى مناورتى:

- وتزوجت صيادا..

فإذا بنعمان ينطق بعفوية:

- ربنا أمر بالستر يا دكتور..

تنبهت، واشتعلت الرغبة فى السؤال..

- ماذا تقصد يا نعمان..؟

كرر، مع شىء من الحرج هذه المرة:

- ربنا أمر بالستر يا دكتور..

ثم أردف بما يشبه الاعتذار:

- كنت فاكرك عارف..

قلت وقد أدركت أن مناورتى قد دنت من تحقيق هدفها:

- عارف أى شىء يا نعمان..؟ كل ما عرفته هو ما نقلته إلى أيام السجن، وهو أنها تزوجت حمودة الذى كان يكبرها بعشرين سنة..

ثم ألححت على غير عادتى فى طلب ما يخفيه نعمان عنى..

ضعف نعمان أمام إلحاحى، وبدأ يروى، قال: الحكاية انتهت من زمن بعيد، وحـــتى فى وقتها لم يسمع بها إلا قليل من سكان السيالة. كل من عرفوا عائشة وقتها كانوا يرون فيها فتاة جريئة لا تتحرج من مخالطة شباب السيالة، لكن الذى لم يعرفه الكثيرون، أن واحدا من أولئك الشباب أوقعها فى غرامه، وكان طالبا فى الجامعة وكانت هى قد قطعت تعليمها على عكس ما تمنى لها والدها. استطاع ذلك الشـــاب المستهتر أن ينالها، ثم تخلى عنها، ولما عرف والدها الريس بكر زلزله النـــبأ فكاد أن يفتك بالشاب، وأسرَّ إلى صديقه الصدوق حمودة بالحكاية، فمنعه، وعـــرض عليه أن يزوجه عائشة فوافق تقديرا لشهامة صديقه ودرءا للفضيحة. وبقـــى الأمر فى طى الكتمان من يومها، لا يعرفه إلا قليلون، إلى أن مات حمودة بأزمـــة قلبـــية مفاجـــئة، فدفـــن الأمر معه. حتى الذين عرفوا، صمتوا تماما لأن معظمهـــم كانوا من المقربين من بكر وحمودة، وممن يعرفون مكانتهما ويعملون حسابا لمهابة حمودة على وجه الخصوص.. وكان الناس على أى حال، بمن فيهم العـــارفون، قـــد أجمعـــوا منذ ذلك الحين، على أن زواج عائشة من حمودة دعم للصداقة الوطيدة بين الريس بكر والريس حمودة..

سؤال عمره عشرون عاما.. كيف لم تصلنى الإجابة عليه فى وقته..؟ حين سألت نعمان أجاب:

- أنا نفسى لم أعرف إلا فى وقت متأخر، وكنت أنت قد سافرت..

ولما أنتبه إلى شرودى، تساءل:

- كنت تحبها.. أليس كذلك..؟

لم أجب إجابة مباشرة، إنما قلت:

- كانت تأتى إلى بيتنا كثيرا مع أمها، وأحيانا بغير أمها. وكانت أمى تحبها ورشحتها زوجة لى بعد إنهاء دراستى وقبل وفاتها..

وتســـاءلت فى داخلى: لماذا سأل نعمان هذا السؤال..؟ هل كان يعرف خبايا مـــا كان بينى وبين عائشة..؟ غير أن حديثه عن أسرار زواج عائشة، ظل جاثما

علـــى صـــدرى، فأوقف استمرار الأسئلة، وطمس أى أثر للسؤال. وتذكرت أمى لســبب لـــم أقـــدر على تتبع مصدره. ورأيتها تهرع إلى فتح باب بيتنا على وقع خــبطات متتابعة ملهوفة. ورأيت عائشة بعدها تندفع من باب الشقة تلهث. شابة نضــرة مــتوردة، زادهــا الذعر واللهاث فتنة، وأمى تسألها مفجوعة: ما لك يا بنــتى..؟ وتحكى عائشة حكاية شاب ظل يطاردها من المنشية حتى بيتنا، وتشير نحــو الــنافذة. أطل من النافذة وأشاهد بالفعل شابا يقف عند الناصية.. أنزل إلى الشــارع عَدْوًا وقفزًا، الشاب لم يتحرك من مكانه، أهجم عليه فيتغير لون وجهه، يتضــرع ويكــاد يــبكى.. يقول من بين انهياره، قول لم أنسه أبدا ولم أفهمه كل الفهم: والله هى اللى جاعت بى إلى هنا. لم أفهم لكن شعورا قاهرا تملكنى وتسلط علىّ، وأوحى إلىّ بأن أصدقه، فصدقته، وأطلقته..

أجل صدقته. فقد كنت أعرف عائشة.. وكنت أحبها، حبا مستحيل التحقق..

قالت لى مرة: أمك تقعد بيننا زى العزول، شوف لنا مكان نقعد فيه براحتنا. وأخذتهــا بعــيدا عــن البيت، بعيدا عن بحرى كله، أخذتها إلى سيدى جابر، إلى "لاكوارتــا". بعــد دقائق ركبها السأم، رأيتها تزفر وترتعش، كل خلجة فى وجهها كانــت تــرتعش. انتفضت وقامت، قالت وكأنها تنفجر: ماعندكش مكان نقعد فيه لوحدنا..؟ ثم مشت، ولم أملك وقتها إلا أن أدعها تمشى، منسحقة ضائعة.

(٦)

مــثل نبات الحنظل، صاعدا من جذوره العميقة، يشق أرضا جدباء، أورقت الذاكرة مستيقظة من سبات طال به العهد. كيف استيقظت، من أيقظها..؟ عليوة أم نعمــان، أم كلاهمــا ؟ أم لعلهــا الذاكــرة نفسها وقد لفحتها رياح السيالة والأنفوشــي، مــا اســتكانت للنوم أصلا.. ظلت راكدة، متكلسة، محصنة.. تنتظر مرأى عليوة، وحديث نعمان، كي تطل برأسها لتعلن أنها حية، متفجرة بالحياة..

تركــت بيــت نعمان والشمس تقترب من الرحيل. ملت نحو شاطئ الميناء الشــرقي أبغــي مواصلة تنقلني إلى سيدي جابر. وفور أن حاذيت البحر، غيرت رأيي، قررت السير على قدمي حتى أبلغ المنشية وربما محطة الرمل.. ذلك ممشى كــان أثــيرا ومفعمــا بالبهجة ذات يوم.. على وقع الخطوات المتمهلة والنشوة الأخــاذة، صــاحبت هــنا أرقــى الأفكار وتعثرت بالأسئلة العويصة وتمثلت زهو الطواويــس. لم تكن المحرمات والمحظورات، تعقل تدفق الأفكار وقتها، أو توقف مســار الأســئلة، وإن لــم توفر سلاما.. حسبها حينئذ أنها كانت ممارسة لحرية مصفاة بريئة تجلب النشوة، نشوة الاستمتاع الأرقى بجوهر الوجود..

كانت عائشة في تلك الأيام فتاة نضجت أنوثتها وتفتح سحرها، تواعدني في الخفــاء بعــيدا عن عيون أمي وأمها، تنتظرني بالقرب من ناصية قهوة فاروق، تــتأبط ذراعي ملتصقة بي، أحس بثديها اللدن البكر يحتك بذراعي فتتأجج النيران في صدري، وكنت أشغلها حين نتقدم في سيرنا - وأشغل نفسي - بأحاديث شتى: فــي السياســة، في الأدب، في الفلسفة. وكنت أسمعها تقول في دلال: عقلك كبير وحــيفرقع.. بــس اصبر، مسيري حاخده في حضني وأدفنه في صدري وأريحك منه..

لكنها انقلبت فجأة، أو هكذا رأيت يومها.. كانت تسير بجواري بشارع سعد

زغلول، متأبطة ذراعى كما عودتنى، تنقل بصرها بين فاترينات معارض الملابس والأحذيـــة. وقالـــت على غير توقع منى: بابا عطانى فلوس كتير علشان اشترى هـــدوم جديدة، وعاوزة أجيب لك هدية بمناسبة عيد ميلادك. مثلى لا يحتفل بعيد مـــيلاد، لكـــنى طاوعتها. ابتسمت، وقلت: فى كتابين محتاج لهم جدا، جدا.. وما عـــنديش فلـــوس.. اشتريهم لى. انتزعت ذراعها من يدى بحدة ووقفت تواجهنى قائلـــة بحـــنق: كتب، كتب.. عيش زى الناس ما هى عايشة بقى يا أخى. صدمت قليلا وارتبكت واستأنفنا مشينا يظللنا فتور موحش، لكنى فوجئت بها تتوقف أمام مكتبة بمحطة الرمل وتشترى لى الكتابين، وحين ودعتها فى نهاية اللقاء، آلمتنى وشغلتنى نظرة الشرود والسأم التى ملأت عينيها..

غابـــت بعـــد ذلك كثيرا، وتوقفت زيارة أمها لأمى وزيارتها معها أو منفردة، ومنعـــنى كـــبريائى عـــن المحاولة، لكنى كنت أفتعل الأحاديث مع أمى تكِئة للسؤال عـــنها، وكانـــت أمـــى تكتفى بالإجابة: كويسة.. ما بتبطلش مناكفة مع أمها.. ربنا يقـــرب البعـــيد. أمـــى كانـــت منكسرة وسليمة النية، وكانت تتطلع إلى تخرجى فى الجامعة، لا لنفع يخصها بالرغم من حاجتها الملحة، ولكن لكى تزوجنى وتفرح بى حســـب قولهـــا. أمى الطيبة المنكسرة هذه، دخلت عليها بعد ذلك بشهور، فوجدتها وقـــد اكتســـى وجههـــا بحـــزن لم تستطع مداراته، تطلب منى أن أجلس بجوارها، وتكلمـــنى كأنهـــا تواسينى: البنت خطبوها لتاجر من معارف أبوها.. خسارة.. هى ماكملـــتش تعليمها صحيح، بس البنت نبيهة وحلوة وصغيرة.. ليه الاستعجال ده..؟ وأمســـكت بيدى تحتضنها، وأكملت: معلهش.. قسمة ونصيب.. بكرة ربنا يبعت لك أحســـن مـــنها. تحصـــنت بالصـــمت أدارى المفاجأة الحارقة وأقاوم عجزى. أمى مريضة، ودراستى لم تكتمل، ونحن فقراء، فقرنا لا يسمح لنا بترف الاحتجاج على اختـــيارات غـــيرنا، وعائشـــة ذهبت على أى حال.. اختفاؤها كان ينذر بانصرافها عـــنى، كـــان يجـــب أن أفهم. غير أنى عبر ما استقبلت من أيام تالية، صرت نهبًا لحراب ولَّدتها أسئلة بلا إجابات، حرقتنى حرقًا.. ولم أستطع إبعاد عائشة عنى، فى جولاتى، وخلال ساعات نومى، وأثناء مطالعاتى واستذكار درسى..

لم أنس عائشة، وقتها، ويتضح الآن أنى لم أنسها بعد..

تدبـــير الصدفة العابثة كان يترصدنى ويعد لى مفاجأة مذهلة. طوال سيرى بحــذاء الـــبحر، من الأنفوشى، حتى أشرفت على محطة الرمل متجاوزا المنشية، دون أن أعرف، دون أن أتوقع.. وكيف أعرف وكيف أتوقع..؟ هذا عالم لم أفهمه أبدا، ولن أفهمه..

بعـــد أن خطـــوت بعـــض خطوات، مخلفا ورائى منطقة المنشية المزدحمة بالســـيارات والمارة، ومحاولا الانعتاق من تيار التذكر، وبينما أنقل خطواتى ببطء مستمتعا بمازوكية الذكرى الأليمة متقدما نحو محطة الرمل، انشقت الأرض أمامى وظهـــر مـــارك، يبتسم ابتسامة واسعة ويتقدم نحوى.. ما الذى أتى به إلى هنا، وكـــيف أتى..؟ تركته بالجامعة أول النهار على وعد أن ألقاه بالسكن مساء..هل تمـــرس بالتجول فى المدينة خلال تلك الفترة القصيرة..؟ ولم أتمكن من استكمال تســـاؤلاتى أو حتى إعلانها أمام مارك، إذ لتوى لاحظت أنه لم يكن وحده.. فخلفه جـــاء شاب وفتاة فى مثل عمره بديا أنهما يصحباه.. الشاب مصرى الملامح، أما الفـــتاة فشـــككت أنهـــا أوروبية.. شعر أصفر ذهبى منسدل على الكتفين، وبشرة مضرجة بحمرة، ورأيتها تبتسم فى وجهى ابتسامة لا تخلو من فتنة. بعد أن زال مـــن نفسى أثر المفاجأة، نطق مارك بعربيته المتكسرة يقدمها إلىَ مضيفا مفاجأة جديدة:

- عائشة..

ثم مال إلى الشاب الذى كان برفقتها، وأشار إليه، وذكر اسما عربيا نسيته فـــورا وكـــأنى مـــا سمعته. عائشة ثانية..؟ أى قدر ساقك إلى يا مارك..؟ جد أم هـــزل..؟ وكـــيف يكـــون هزلا والأمر يتعلق بسر من أسرار حياتى دفن مع دفن نضـــارة عمـــرى الـــتى وئدت ذات يوم فى هذا المكان، منذ زمن يبدو موغلا فى الـــبعد..؟ ودعانى الشاب الذى لم ألتقط اسمه وسط دهشة المفاجأة إلى الجلوس، فانتبهت للمرة الأولى إلى أن ثلاثتهما كانوا يجلسون بأحد المقاهى المتناثرة فوق أرصفة شاطئ البحر، قبل أن يلحظنى مارك قادما نحوهم، ويقوم معترضا طريقى.

جلســت كــأنى بــالفعل كنــت محــتاجا إلــى الــراحة بعد التمشية الطويلة من الأنفوشى.وسألت مارك وأنا اصطنع المــرح:

- جميل يا مارك.. تبدأ أول يوم فى رحلتك الدراسية بالصعلكة..

فانبرى رفيقه الشاب بالرد على:

- ليست صعلكة.. أردنا فقط أن نحتفل بوصوله الميمون إلى مصر..

وأكملت الفتاة بلهجة مصرية سليمة وإن شابت مخارج ألفاظها لكنة:

- دعونــاه إلــى فول وطعمية وسلطات عند محمد أحمد، ثم جئنا إلى هنا نهضم الفول بالشاى..

وتلقف الشاب جملتها، وقال:

- عمــل بــيات شتوى وربيعى أيضا.. أكل الفول والطعمية بما يكفيه حتى عودته إلى إنجلترا..

ضــحكوا جمــيعهم، وشــاركتهم ضحكهم. كان الغروب قد اكتمل، وظهرت مصــابيح الكورنــيش تتلألأ بإضاءة خافتة، فتضفى على المكان سحرا يقربه من سحر الفجر. وظل شاغلى محصورا فى الفتاة. سألتها بعد أن كفوا عن ضحكهم:

- أنت مصرية يا عائشة..؟

أجابــت بالإيجــاب مبتسمة. ويبدو أنها أدركت مغزى الدهشة التى انطوى علــيها سؤالى، فتطوعت بالإسهاب فى الإجابة علىّ. قالت إن أمها ألمانية، تعرف علــيها أبوهــا المصــرى فــى ألمانيا التى قضى بها ستة وعشرين عاما عاملا بالتجارة، إلى أن عاد إلى مصر أخيرا منذ عامين واستقر نهائيا بها. ولدت عائشة فى ألمانيا بعد أن تزوج أبوها بأمها هناك، وأكملت تعليمها. وحرص والدها على أن تتكلم العربية دون أن تتاح لها دراستها بالمدارس لعدم توفر المدارس العربية فى المدن التى عمل بها، لذا عمد فور رجوعه إلى مصر إلى إلحاقها بمركز تعليم اللغــة العربــية للأجانب بجامعة الإسكندرية، وهو المركز الذى تعرفت فيه على

مارك صباح اليـــوم فقط. وقالت مضيفة أنها فى العشرين من عمرها، ولا تشعر بالغـــربة فـــى مصر، لأن الإسكندرية لا تختلف كثيرا عن ألمانيا.. أو بمعنى أدق، هى لم تستشعر اختلافا كبيرا، لأن والدها كان حريصا على تربيتها تربية مصرية مع قدر محسوب من ممارسة الحرية وبناء الشخصية المستقلة..

وختمت حديثها، بالقول:

- يعـــنى تقـــدر يا دكتور تقول إنى مواطنة مصرية كانت غائبة عن وطنها وحضرت..

وأردفت وهى تشير إلى مارك:

- يعـــنى غير هذا الإنجليزى اللى اتهبل على الفول والطعمية وهو يأكلهما أول مرة..

وعَقَّب الشاب موجها حديثه إليها:

- اطمئـــنى.. يومين ثلاثة ونعلمه أكل المش الصعيدى والفسيخ الرشيدى، وإنشاء الله يسمعك من حلقه صوت الحركة الإسكندرانى الشهيرة..

واســـتأنفوا الضحك، حتى مارك الذى لم يستوعب كثيرا من الحوار الأخير الدائـــر حوله بالعربية.. رأيته يضحك مجاراة لمن حوله. لم أشاركهم الضحك هذه المـــرة.. إذ بـــرغمى وجدتنى مستغرقا فى تأمل المفارقة..عائشة تترصد ذاكرتى وتترصدنى.

(٧)

فى البيت، بعد أن صحبنى مارك فى رحلة العودة، أخبرنى باعتزامه تغيير إقامته، وأعاد تعريفى بالشاب الذى كان برفقته، قائلا إنه معيد بمركز اللغة العربية يعد للماجيستير بكلية الآداب، وأنه وعده بمسكن مستقل يقع بمنطقة الأزاريطة بالقرب من مبانى الجامعة. لم أجد سببا لمعارضته، إذ من المنطقى أن يبحث شاب أجنبى عن سكن فى بلد غير بلده، يوفر له حياة حرة ويعفيه من الحرج إزاء المسالك التى قد تختلف عما تعوده فى بلده، علاوة على أن نعمان استأجر سكنى الحالى لمدة شهر واحد كما طلبت منه، ولم يكن فى نيتى أن أبقى فى هذا السكن أكثر من تلك المدة، إن أكملتها..

إن أكملتها.. ترددت العبارة فى رأسى وأنا أستعيد سأم الصباح ومشاعر السخف التى أحاطت بى أثناء زيارة كلية الآداب بصحبة مارك فى مهمة غير مقنعة. إن أكملتها.. كيف سأقضى ذلك الشهر..؟ هل سأتجول على مدى ثلاثين يوما بالشوارع التى أعرفها، مستطلعا مبانيها التى لم تتغير كثيرا، مستعيرا ذكريات باهتة، أو ذكريات لا تجلب سوى الألم والحسرة..؟ لماذا جئت..؟

عادت مشاعر السخف تجثم على صدرى بمجرد فراغ مارك من نقل أخبار يومه الأول فى الإسكندرية، واستأذننى فى دخول غرفته لمراجعة بعض المطبوعات التى تتعلق ببرنامجه الدراسى، ووافقته مرحبا بالخلوة التى قدرت أنه سيتيحها لى بعد يوم ملىء بالمشاعر المتضاربة. قربت مقعدا من الشرفة المطلة على البحر فور إغلاقه باب غرفته عليه، ورحت أتطلع إلى الأفق المتلاشى فى الظلام، مستعيدا جلسة ليلة الأمس، لكن مع صحوة متوهجة هذه المرة..

عمدا، وجدتنى أحرك عينى نحو الميناء الشرقى..مآذن المساجد رغم البعد

تـــبرق وســـط الظلام، وسط أشباح المبانى. دققت.. فى نقطة ما بين تلك البنايات المـــتزاحمة والـــتى يطويها الظلام تسكن عائشة. لعلها الآن تقدم على حركة ما، تمشى، تتكلم، تتشاجر، تتأهب للنوم، آخر ما يخطر ببالها أنى رجعت، وأنى أتطلع إليها. برؤية مستحيلة.. ماذا لو عرفت؟

خبر خطبتها الذى أوجعنى، لحقه خبر آخر زاد فى وجعى.. استقبلتنى أمى إثـــر عودتـــى من الجامعة ذات يوم قائلة: ما دريتش..؟ الريس بكر أخد شقة فى العمـــارة الجديـــدة اللى بنوها على البحر، ونقلوا عفشهم النهاردة الصبح. كانت الشـــقة الـــتى تســـكن بها عائشة تقع فى الطابق الأسفل الذى يلى شقتنا، وكانت عائشـــة - قـــبل أن تنصرف عنى - ترقب مواعيد خروجى وعودتى، تتعمد ترك بـــاب شقتها مفتوحا كى ترانى، تفتعل أمورا وأحاديث تواعدنى خلالها. شىء فى داخلـــى اهـــتز أول مـــا ســـمعت الخبر الذى نقلته أمى، حربة مدببة انغرست فى معدتى، ضاعت عائشة إلى الأبد، هل كنت لا أزال آمل فى عودتها..؟

أيام بطيئة مضت قبل أن أبدأ حماقاتى.. أمرُّ كل يوم أسفل العمارة الجديدة الـــتى تحـــتل ناصية طريق البحر المفضى من الأنفوشى إلى رأس التين، أختلس نظـــرات إلـــى الـــنوافذ والشرفات، أفقد اتزانى وأمتلئ بالارتباك والخجل، أشعر بـــالهوان.. والمدهش أنى- مع كل تلك المشاعر- كنت أخشى أن تتحقق الصدفة فـــتطل وتـــرانى. وحدث بالفعل، أطلت ورأتنى، ولم أكن قد لمحتها.. مرة، وبينما كنت أمشى فاقد الأمل فاقد الوعى، سقطت برتقالة إلى جوارى كادت أن تقع فوق رأســـى. انتفضـــت، أرســـلت بصرى بعد أن رفعت رأسى ورأيتها.. كانت تبتسم ابتسامة عريضة. نفس الابتسامة المشحونة مكرا وشقاوة. وأسرعت فى خطواتى وقد زاد ارتباكى وتعثرت خطواتى..

مـــرض أمـــى تدخَّل فى ذلك اليوم ليصرف عنى البأس، مستبدلا إياه ببأس أشـــد. دخلـــت البيـــت مكلوما لأجد أمى فى حالة تشبه الاحتضار: السكر والفقر والإهمـــال القسرى افترسوا جسدها، كانت فى شبه غيبوبة، تكلمنى بعناء، تشكو مـــن كليتها وآلام القولون التى لا تطاق. وأسرعت إلى عمى فى محل العطارة، لم

يتأخر عن واجبه، أرسل فى استدعاء زوجته وبعث نعمان ليرافقنى فى العودة إلى البيــت. حيــن رجعنا إلى البيت كانت حالة أمى قد تحولت إلى الأسوأ، كانت تتألم بصــورة بشعة وتصدر أنينا كأنين حيوان هزيل مشرف على الموت. قررنا، بعد تــردد، نقلهــا إلــى المستشفى. ماتت أمى بالمستشفى بعد شهرين.. غائبة عن الوعى، مهملة، لا يهتم بها أحد غيرى.. آخر نظرة ألقتها علىّ، قرأت فيها معانى حسرة مختلطة برجاء يزاحمه يأس أقوى منه..

أصرت زوجة عمى على تلقى العزاء فى بيتنا، مشاركة لبعض السيدات من أقاربــنا البعيديــن. حضــرت عائشة برفقة أمها، ورأيتها وسط السيدات ترتدى السواد، ورصدتها أكثر من مرة وهى ترقبنى بنظرات زائغة. ماذا كانت تعنى تلك النظرات..؟ فكرت، ولم أجد تفسيرا لها مرة تلو مرة..

الأيــام الــتى أعقبــت وفاة أمى، وخلو البيت علىَ وحدى، لم أعتبرها أيام حــزن.. كانــت أيام تساؤلات فحسب.. نشأت وحيدا وفقيرا، لم أصاحب رفاقا، لم ألعب، القراءة منذ أول يوم بالمدرسة كانت لعبى الذى لم أعرف غيره، حين كبرت وعرفــت عائشة فشلت فى أن تعلمنى اللعب، ولكنها اقتربت منى كثيرا لا أعرف لمــاذا.. عكفت على الدرس والقراءة وجولات التأمل بجوار البحر، وغابت خلال ذلك صورة عائشة كثيرا، بهتت.. وبردت محاولات استدعائها، فأقنعت نفسى بأنها تجربة صبا وشباب لا أكثر. بصورة ما، كنت قد توصلت إلى حقيقة مخادعة.. أنى أتقــدم فــى النضج، ما جدوى العاطفة..؟ الأجدى أن أتفرغ للإجابة على الأسئلة الكبرى. كنت أتمثل زهو الطاووس، عوضا عن حرمانى من أشياء كثيرة امتلكها غيرى من البشر..

اختارت عائشة وقتا غير مناسب بالمرة للحالة التى كنت توصلت إليها، أو ربمــا حسبت حسابات خاطئة من ناحيتها.. جاءت إبان تلك الفترة، وطرقت باب بيــتى متســللة فــى فترة بعد الظهر ذات يوم أعقب وفاة أمى. اندفعت بجسدها مقتحمة البيت، واندفعت بلسانها، مصطنعة وسيلة الهجوم بادرة مثلى للدفاع.

قالــت قــبل أن أواجههــا بالهجوم، ودون أن أواجهها: عامل إيه وعايش إزاى؟ شــكرتها علــى الســؤال حــامدا الله، فتمادت فى لومى، قلت: سمعت أنك خُطِبْتى، فردت باستهانة: فسخت الخطبة، راجل وحش. اعتصمت بالصمت،فجلست وانطلقــت تحكــى.. رجــل غــيور وشكاك، وكنت غير موافقة، ضغط أبى على وعايــرنى بعدم استكمال تعليمى، ووقفت أمى: بجوارى مرددة أنه عريس لقطة، وأنــت كنت مش هنا.. كلام، كلام.. لحد ما زهقتنى منك. قالت أمى، شاب وغنى ولـــه مســتقبل، نستنى إيه..؟ وسمعتها تهمس فى ودن بابا وتقول: لازم تستر البنــت. لما ظهرت سيئاته اشتكيت ومرضتش استمر معاه، أبويا ما هنتش عليه. فســخ الخطــبة معاه ورجع له حاجته ونفذ لى طلبى.. بابا ما يرفضش لى طلب أبدا..

كنــت واثقا أنها تكذب، وأن كذبها هذا، بغض النظر عما تضمنه من تبرير التخلى عنى، كان خط دفاع تقاوم من خلاله هجمة واقع أليم تعرضت له: إن الذى كــادت ترتــبط به باختيار حر، فهمها سريعا، وهو الذى رفضها بمنطق ذكورى سائد. وكان الألم الذى عشته طويلا، قد أكسبنى قسوة صامتة، ومعرفة جارحة.. صــرت موقنا أن ما تسعى إليه عائشة، ما تطلبه بإلحاح.. رجل،أى رجل. وتسلط على خاطر مهين، بل هو الإهانة نفسها.. أن عائشة، عبر هزيمتها، تحولنى إلى ذكــر احتــياطى، نقطة ترتاح عندها متنقلة من مغامرة إلى مغامرة.. ولن أتحمل هذا.. سأضيع وأنفجر، عندى ما هو أهم كى أنفجر من أجله.. رغم حبى لها..

كــان هــذا تفكيرا سابقا عن أوانه، وأكبر من عمرى حينذاك، لكنى وقتها اعتــبرته إلهامــا، ألم أكن طاووسا..؟ لم أتردد، واندفعت أصارحها. قلت لها فى نهايــة حديــثى: إنهــا غير مضطرة للتبرير والاعتذار، فالإنسان حر فى اختياره ومســئول عــنه، وبحريــتها تستطيع أن توقد نارا تحرق، أو تزرع حديقة تحيى وتجّمــل. صــمدت فى مواجهتى، وكابرت وتحايلت، عالجت الكذب بالكذب، أبدت اهــتماما بأمورى.. من يطبخ طعامى، من يغسل ملابسى، وعزفت على وتر ظننته حساســا: أمــك الله يرحمها كانت تتمنى أن تزوجنا، تعال نحقق لها أمنيتها لتنام

مطمئـــنة، اقتربـــت مـــنى ودنـــت، تسللت أنفاسها إلى صدرى فأسكرتنى، فزعت وأبعدتهـــا عـــنى والـــنار تحرقنى، فتنتها متوحشة، لو لم أبتعد عنها لأحرقتنى. أبعدتها.. أبعدتها ببطء وإصرار، أستجير منها بها..

وعلـــى غير توقع رأيتها تنهض من جلستها إلى جوارى، وتستقيم واقفة، رأســـها مرفوع وهى تطل علىّ من عل.. عيناها تبرقان كأن نارا ستنبعث منهما وتحرقـــنى، شـــفتاها تـــنفرجان عن ابتسامة غامضة، ثم بدأت تنهال على وجهى ورأسى بالصفعات واللكمات.. لكمات عشوائية، عنيفة، مضطربة، مجنونة، تلقيتها جميعها فى صمت زادها هياجا.. إلى أن همدت..

بعد دقائق هدأت، وسمعتها تتقدم نحو باب الشقة تعتذر. مشيت وراءها كى أوصـــلها إلى خارج الشقة واطمئن عليها.استدارت إلىّ، رأيت عربدة شياطين لا زالـــت تســـكن تحت جفنيها، أسبلت جفنيها، وقالت بخفوت: أنا أكرهك. وهبطت الدرجات هادئة بعدما فتحت لها الباب..

تصـــرف معين كانت تنتظر أن أقدم عليه وقتذاك ولم أفعله. أدركت بعد أن مشـــت. فعله غيرى إذن فيما بعد.. أهو السر الذى رفع عنه نعمان غطاء الجهل والنسيان..؟

لكـــنى أنا، بالرغم من تعاظم ألمى فى حبها، لم أجرؤ على الإقدام عليه فى وقتها.

(٨)

مــنذ أن ولدتــنى وغاب عنها أبى بالموت المجرد من المعنى، أغدقت على أمــى من رعايتها وحنانها ما ظللت اعتبره خَصْما من حقها المشروع فى الحياة. رفضت الزواج من بعد أبى بالرغم من فقرها، وفضلت هوان الفقر على هوان أن يرعانى رجل غير أبى. ولما مرضت، وأبلغوها بخطورة وحقيقة مرضها، اعتبرت أن العلاج من مرضها ترف لا ترضاه، خاصة إذا أخذ ذلك العلاج قدرا ولو يسيرا مــن ميزانيــتها المحدودة التى خصصتها بالكامل، وبالكاد، للإنفاق على إطعامى وكسائى وتعليمى إلى أن أدخلتنى الجامعة..

لــم تــتح لــى أبــدا فرصــة تعويضها عن شقائها من أجلى، لكن الوجود المستعصى على فهمى ثأر لها بعد أن رحلت وضاعت فرصة أن أعوضها..

خــلال الســنوات الأخيرة، بدأت أستشعر إجهاداً ملحوظا فى أداء أعمالى، وهى محصورة فى مجملها فى القراءة والكتابة والمحاضرة، قل تحصيلى وضعفت قدرتــى على التدوين وعانيت كثيرا من ضيق الصدر وافتقدت المثابرة التى كانت مــن أخــص خصائصــى، وعرفــت مؤخرا أحاسيس الهمود، إضافة إلى مشاكل استجدت فى الهضم والقولون. فى البداية أرجعت – اجتهادا – كل تلك الأعراض إلــى اســتهلاك الطاقــة وبــذل الجهد غير العادى خلال سنوات وصولى الأولى لإنجلــترا، ثم أضفت إليه التقدم فى السن، إلا أن نوبتىّ دوار تعرضت لهما على فترتيــن متباعدتيــن أثناء وجودى فى قاعة المحاضرة بأكسفورد، لفتتا انتباهى وأثارتا شكوكى وشكوك غيرى.. حين ذلك لم أجد مفرا من أن أتعرض للفحوص، وجــاءت نتــيجة الفحوص كلها تؤكد تعرضى لمرض السكر الخبيث اللعين.. لقد أورثتــنى الطبيعة الهازلة مرض أمى ثأرا لها، ولم أكن السبب الأساسى لأصابتها به، وهكذا بدأت أدفع ثمنا عبثيا لخطأ لم اقترفه..

السكر حالة مرضية أكثر منه مرضا يتركز فى عضو معين من أعضاء الجسم البشرى. إنه يعمل على تدمير الخلايا إذا ما أهملت مراقبته، ويستجلب أمراضا شتى تنهش كل الأعضاء، ولا تستثنى الأعصاب والذهن. ولخبرتى المؤسية بحالة مرض أمى، تعاملت مع العلاج بحكمة ودقة، وخاصة فى أدق دقائقه: تنظيم الغذاء. ومع الأيام ألزمت نفسى بتعاطى وجبات خفيفة على مدار النهار، مع الاستغناء عن وجبة العشاء وتعويضها بكوب لبن دافئ درءا لمتاعب القولون أثناء النوم..

عصر هذا اليوم الذى انقضى الآن، دعانى نعمان إلى وجبة أسماك شهية، وتحت الضغط والإلحاح الشرقى استجبت، أكلت كفايتى من الأسماك والسلطات، وتجنبت الأرز والبهارات، وقلت إن السمك سيد البروتين واستغنيت عن كوب اللبن الدافئ المسائى. غادرت مقعدى أمام الشرفة، الشقة صامتة ساكنة، فحذرت أن مارك قد نام، اتجهت بدورى إلى غرفتى، أغلقتها علىّ، وشرعت فى التأهب للنوم..

هل نمت..؟ من المؤكد أنى غفوت، وبالرغم من حرصى على النوم ومعدتى غير ممتلئة، فقد جرى ما جرى.. رأيت عليوة آتيا نحوى، مثلما أتى حين كنت جالسا بالمقهى، غاضبا مثلما كان، ملامحه أكثر وضوحا، يشبه إلى حد كبير عمه حمودة الذى رباه، الوجه الممتلئ قوة وسماحة ونبلا. قال من بين غضبه موجها إلى الخطاب هذه المرة: أنت تعرفها، مؤكد تعرفها، هى لا تحبنى ولا تحب أحدا، منافقة وكاذبة ومخادعة، وتسعى إلى قطع عيشى، أنا ربيب زوجها الذى سترها. قال ذلك وأنا جالس مشدوها، تحت شمس متوهجة. ثم أعتمت الرؤية فتلاشى، وأفقت أنا..

أفقت وتململت، وضاع النوم. وسألت: من هى، من كان يقصد؟ وسألت أكثر تحديدا: ما تفسير كل ذلك، أله صلة بتيار الذكرى الذى هب طوال النهار؟

استعصى علىّ النوم بعدها. قمت. غادرت مضجعى. انسللت من غرفتى.

الشــقة ازدادت سكونا. مارك بالقطع نائم نوم طفل. ذهبت إلى الشرفة من جديد. الــبحر غارق فى الظلمة والصمت ولا يقول شيئا. أحسست بلدغات برد فقلت: إن الخريف قد بدأ يستسلم لمقدمات الشتاء. أغلقت الشرفة ورجعت إلى غرفتى..

وقــبل أن أنـــام كنت قد عالجت فكرة دبت فى رأسى حتى احتلتها، تسلطت عليها: سأعاود زيارة الأنفوشى فى الصباح، غدا..

اســتيقظ مـــارك مبكرا و أيقظنى بنقرات فوق بابى. قلت له مداعبا بعد أن انتبهت:

- تحشــر معدتــك بــالفول والطعمية وتنام كالأطفال، وأنا الذى بت خاوى المعدة أعانى من الأرق طوال الليل..

ضــحك ومضى مسرعا ولم ينتظرنى كى أنزل معه، محتجا بأن لديه موعدا مع عائشة بالجامعة. همست بعد أن مشى، أسمع نفسى: وأنا أيضا لدى موعد مع عائشة الأخرى، أخشى أن يتم وأرجو أن يتحقق.. لغز لم أعد أفهمه..

حماقــتى كانت قد هيأت لى وهم احتمال أن ألقى عليوة بنفس المقهى، إذا ذهبــت إلــيه فى نفس الموعد الذى قابلته خلاله بالأمس. هل يذهب كل يوم، ألا يحتمل خروجه فى رحلة صيد اليوم، أسئلة لم أرحب بها أو بمثيلاتها وهى تخطر علـــى بالى وأنا أستعد لمغادرة سكنى. الفكرة التى تسلطت على رأسى عقب حلم اللـــيل، كانـــت مـــن الاستبداد بحيث طردت كل ما عداها، وأسلمتنى إلى ما يشبه الخـــرق.. أريد أن ألقى عليوة، وحين ألقاه سوف أتحايل بكل الوسائل والأساليب حـــتى أجمـــع بقـــية حكاية عائشة من فمه.. كيف عاشت فى ظل الريس حمودة، وكـــيف تـــريد أن تقطـــع عيش عليوة، وماذا وراء تسميته لها بالأمس "المعلمة الضلالية"؟؟ هل سألقاه.. وفى غمرة تشوش رأسى تطلعت إلى ساعتى، فاكتشفت أن الوقت لا يزال مبكرا، فهمدت، وهبط علىّ شعور بالسخافة..

لكـــن العـــناد والنزق ركبانى، وأصررت على الذهاب. مرت بى ساعة ثقيلة الوطـــأة، قبل أن أنزل من مسكنى وأستوقف سيارة تاكسى آمرا سائقها أن يذهب

بـــى إلى الأنفوشى. فى دقائق أوصلنى التاكسى إلى أول الأنفوشى، وعند المسجد الصغير الواقع على رصيف البحر أمرت السائق بالتوقف، ونزلت. لهفتى غلبتنى.. اتجهـــت عيـــناى فور أن تركت التاكسى إلى الضفة الأخرى من الطريق، شاهدت المقهى الذى يحتل ناصية انحدار الطريق إلى رأس التين، تعثرت عيناى بقلق فى أفراد قلائل كانوا يجلسون أمام واجهتها الخارجية، لم أعثر على أحد يشبه عليوة. أعــدت التجول بنظرى حتى تأكدت.. غير موجود. وقلت: يا للسخف. مع ذلك ظل عـــنادى يركبـــنى وإصرارى السخيف يتحكم فى مقصدى. قلت: لعله لم يأت بعد، وسيأتى، ولا ينبغى أن أتعجل. سأنتظر، أنا فى حاجة إلى فنجان قهوة. كنت أولى ظهرى للمسجد منذ أن نزلت من التاكسى، وخطر لى - بباعث غير مفهوم - أن أتطلـــع إلـــى مبنى المسجد من جديد قبل أن أعبر الطريق إلى المقهى. استدرت، ونظـــرت.. مبنى مربع الهيئة صغير الحجم، أبوابه مفتوحة مباشرة على الصحن، وفيما وراء الصحن، فى عمقه لاحظت غرفة داخلية قدرت أنها تستخدم لإقامة أو انـــتظار الإمـــام أو المؤذن حسب ما هو موجود فى معظم المساجد. حين سحبت بصـــرى إلى خارج المسجد مرة أخرى، واجهتنى لأول مرة لافتة لم أكن قد التفت إلـــيها بـــالأمس ولا حيـــن حضرت وشيكا: "الجمعية الخيرية الاجتماعية لمسجد الأنفوشى". كانت اللافتة معلقة فوق بناية أصغر ملاصقة للمسجد. مضيت بعد ذلك أخطو نحو المقهى، أعيد فحص الوجوه من البعد، لعلى أرضى نزوتى وأعثر على عليوة..

اخـــترت مـــائدة متطرفة فى بداية واجهة المقهى، وجلست. لمحنى الساقى وجـــاء مستطلعا، لعله تذكرنى من الأمس، طلبت قهوة سادة فانصرف يحضرها. لفت حضورى نظر بعض رواد المقهى، لكنهم سرعان ما انصرفوا عنى. وعنّ لى خاطـــر عـــارض.. معظـــم رواد المقهـــى هؤلاء من الصيادين، وفيهم من يسكن السيالة، ربما تعرف أحدهم على. هيئتى تبدلت صحيح، وغزت الشعيرات البيضاء رأسى حتى طوقته، واختبأت جفونى تحت العوينات، لكن من يضمن..؟ بينهم أكثر مـــن واحد متقدم فى السن، بل فيهم من يعادل عمره ضعف عمرى. قلت: لو كان الريس بكر حيا لما جرؤت، وأخذتنى خفة واستهانة. وحضرت القهوة..

كنــت لا أزال أطمع أن يحضر عليوة، فرحت أرتشف قهوتى ببطء. وشيئا فشــيئا ارتــد إلى اتزانى مع شىء من التراجع والخيبة. حمت الشمس مع تقدير بطــول جلســتى، وغلب إحساسى بأن الجالسين إلى جوارى أخذوا يتسائلون فى دواخلهــم عــنى. تبدلت حالتى النفسية عما كانت حين حضرت، ووجدتنى أنادى الساقى وأدفع له نقوده، وأنهض مغادرا المقهى..

ســرت فى الاتجاه المعاكس صوب حلقة السمك. ووجدتنى أقترب من دكان الريس بكر الذى كنت أعرفه فى الماضى والذى قال نعمان أن عائشة اتخذته مكانا تدير منه تجارتها. هل حدث ذلك عمدا، أم أن قدمى قادتنى فى غفلة منى..؟ على أى حال، لما حاذيت الدكان تطلعت إلى داخله بنظرة عجلى، التقطت عيناى شابين داخلــه أحدهمــا يجلــــس وراء مكتب منهمكا فى تدوين شىء تحت يده. رفعت رأســى - هروبا أو حب استطلاع - فقرأت لافتة غير التى كنت أعرفها: "أسماك الحاجة عائشة"..

حاجَــة..؟ جمــيل. اســتكملت عائشــة وجاهتها الاجتماعية إذن، وما عاد أبوهــا - فــى قــبره - يأسف لضياع تعليمها أو ضياع مستقبلها.. الزمن كفيل بتعويض كل الخسائر..

واصلت سيرى وقد أسرعت فى خطاى، ولكنى انتبهت فجاة إلى اقترابى من بيــتها. دارت فى رأسى أفكار شتى ومحاذير أخشاها بالرغم من جهلى بما استجد فــى عشــرين عاما، فتوقفت، نكصت على الفور وارتددت، عدت راجعاً من نفس الطــريق. وحين مررت بالمقهى فى رجوعى، ألقيت نظرة عجلى ومضيت، رحت أتطلــع إلــى الشارع بحثا عن سيارة تاكسى تعود بى، وأثناء ذلك سمعت صوتا متحشرجا ينادى من ورائى:

- بتدور على حد يا أستاذ..؟

(٩)

فوجئـــت فالتفت لا إراديا إلى الخلف. رأيته يتفحصنى بعينين كليلتين كأنهما يدمعان: طاعن فى السن، كالح البشرة، توحى تجاعيد وجهه بأنه تخطى السبعين ملابســـه تنوب عن حاله: بلوفر أسود يغطى صدره حتى رقبته، مع أن الشتاء لم يحـل بعد، وسروال من الجينز متهدل عليه. يبدو فيهما كبحار عجوز خارج من طـيات كتاب قديم. كان جالسا وحده فى أقصى الطرف الآخر من واجهة المقهى، يـريح سـاقا علـى ساق، النصف الأعلى من جسده مائل إلى الخلف وكأنه نائم مستند عليه. لا أذكر أنى لحظته حين أتيت، لكنى فور أن التفت إليه و... بعد سماع صوته، تماسكت من اضطراب كاد يحل بى. كنت قد استدرت إليه وخطوت خطـوة واحدة مقتربا منه. تجاوزت أثر المفاجأة، شىء فى وجهه بعث فى نفسى طمأنينة، وأسعفتنى الحيلة، فقلت أرد عليه:

- أبدًا.. الحكاية أنى واعدت صديقا هنا ولم يأت..

فقال ســريعا:

- كل تأخير فيه خير.. فى العجلة الندامة يا أستاذ..

وأردف ببساطة:

- أقعد يا رجل.. الغايب حجته معاه..

يكلمنى كأنه يعرفنى. بساطته شدتنى، فجلست إلى جواره..

- شوفتك لما جئت، وشفتك تشرب القهوة وتمشى.. مستعجل قوى..

وقبل أن يتيح لى فرصة لأى رد سألنى عن اسمى ومهنتى. ذكرت له اسمى وترددت قبل أن أقول:

- أنا أستاذ بالجامعة.. وكنت مسافراً بالخارج لمدة طويلة..

أبدى إعجابا فطريا تفوح منه معانى الإكبار، وردد:

- ما شاء الله..

ثم اندفع يقول:

- أنا أيضا سافرت كثيرا.. الشام، واليونان، وإيطاليا.. قبل ما اشتغل على مركب الريس بكر مع الريس حمودة الله يرحمهم..

ارتج شيء فى داخلى. الريس حمودة والريس بكر، جئت إلى هنا لأسمع من علوة، فإذا الصدفة تسوق إلى هذا العجوز الذى يعرفهما، وربما يعرفهما أكثر، ويتكلم على السجية دون الحاجة إلى شبهة السؤال. بلهفة، ولكن مغلفة بالاتزان، وخشية أن تضيع الفرصة، قاومت حذرى وتساءلت موجها السؤال إلى العجوز:

- اشتغلت مع الريس حمودة والريس بكر..؟

- هل تعرفهما..؟

- كنت أسكن قريبا من هنا فى صباى، وسمعت عنهما كثيرا..

- أنت من بحرى بقى..؟

- زمان يا عمى.. ربنا يديك الصحة والعافية..

خلطت الحقيقة بالكذب كى أصل لصيغة أرضاها وأشبع من خلالها حب الاستطلاع الذى تملكنى. وإذا بالعجوز يتنهد، ويقول:

- فيك الخير يا أستاذ.. الدنيا فسدت، وما عاد أحد يفتكر..

تقدمت خطوة. سألت:

- وإيه رأيك فى الريس حمودة يا عمى..؟

أجاب العجوز باندفاع:

- رجل جدع الله يرحمه، عمرى ما عرفت مثله.. الصيادين ما شافوش أيام زى أيامــه، مــع أنه عمره ما كان عنده مركب ملكه.. طول عمره كان شغال على مراكب غيره ومركب حبيبه الريس بكر.. المركب كانت ترجع وتفــرغ حمولــتها وكل واحد ياخد حقه أول ما تتسلم للتجار.. كانت أيام كلها خير ومليانة.. رجال فيهم جدعنة..

تلقيت اندفاعه بابتسامة هادئة، ثم تقدمت خطوة أكثر اقترابا وسألت:

- صحيح أنه تزوج ابنة الريس بكر..؟

واصل اندفاعه قائلا:

- خير وبركة يا أستاذ.. ربنا كان كاتب لها السعد على إيديه.. كانت عيّلة طايشــة لما اتجوزها، علمها ورساها لحد ما بقت أحسن من ألف رجل، وأهى دلوقت أكبر تاجرة سمك فى بحرى.. تحسن للغلابة وتعرف ربنا..

وأشار بيده نحو المسجد، وقال:

- المســجد ده هى اللى بنته بنفسها طوبة طوبة، ومن حر مالها.. وعملت كمــان جمعــية خيرية ومستوصف للغلابة فى الحجارى.. قوللى بقى لو كانت اتجوزت عيل زيها كانت وصلت لإيه..؟

أثــناء مرور ساقى المقهى بالقرب منا، رأيته يتوقف ويخاطب العجوز من موضعه، قائلا:

- كفايــة بقــى حواديــت.. أتــرك الأستاذ فى حاله، ده ضيف، ما له هو وحكايات الجدعنة بتاعتك..

وأدركت أن العجوز مشهور بالمقهى ومناط سخرية. لما ابتعد الساقى، نطق متجهما:

- شفت. مش باقولك.. مفيش جدعنة.. الجدعنة خلصت من بحــرى..

دعوته إلى شاى فأبى. بدا متأثرا بكلام الساقى. أردت أن أعيده إلى اندفاعه

وحماســه السابقين، فسألته عن عليوة وقلت إنى أذكره أيام شبابى فإذا به يقول ممتقعا بتجهم:

- عصــبى، ما يعرفش يمشى شغله، فاكر أنه حيكون زى عمه.. بس مش ممكن، الريس حمودة ما يتكررش.. والزمن غير الزمن.. حتى رجالته ما بيسمعوش كلامه وهما راكبين معاه فى وسط البحر..

حكيت له عن غضبته بالأمس أمامى فى نفس المكان وتلميحه إلى المعلمة الضلالية حسبما وصفها فازداد اكتئابه، وعلــق:

- بيخسر كل الناس.. ما عدش عنده صحاب يدافعوا عنه..

وأدركت أنى لن آخذ منه شيئا أكثر، علاوة على الشك فيما أخذت. نهضت، وألقيت عليه السلام. رد وكأنه لم يكن معى ولا كان يجالسنى بإرادته..

عــدت إلـــى البحــث عن سيارة تاكسى وأنا أتساءل: ما هذا الذى أفعله..؟ فكـــرت وأنـــا واقف انتظر تاكسى يمر أمامى أن أذهب إلى نعمان، وأزحت الفكرة عـــن خاطرى بنفس السرعة التى برقت بها. أمس سألنى هل كنت أحب عائشة، ولـــو عرف أنى جئت إلى الأنفوشى اليوم فسيتجدد سؤاله وإن لن يصرح. لم أكن مـــرتاحا ولا مرحبا، وقلت: وقت آخر. عندى ما أتحدث فيه مع نعمان، ولكن فى وقـــت آخـــر يكون أنسب. فجأة تذكرت أمرا آخر شغل جوارحى كلها دفعة واحدة واســـتولى علـــى خواطرى. ومرت سيارة التاكسى فى نفس اللحظة، أشرت إلى السائق فتوقف، فتحت باب السيارة ودخلت. قلت للسائق:

- العمود لو سمحت..

نظر نحوى وبدا عليه الامتعاض. توقعت أن يرفض ويسوق بعض الحجج، ولكـــنه واصـــل قيادة السيارة صامتا، ومضى بى. عند مدخل كوم الشقافة أنزلنى وقال:

- ما اقدرش أدخل أكتر من كده..

شـــكرته ونفحـــته مـــبلغا أرضاه، المنطقة مزدحمة بالفعل: باعة وسيارات

وعربات ترام ومشاة، منذ متى لم آت إلى هنا.. شاهدت المدرسة الثانوى الطليانى وقد كلحت جدرانها وتشوهت مداخلها، وتذكرت عبارة نعمان الذى عقب بها لحظة استقباله لى بمحطة الرمل: إلى الأسوأ..

مــن حيث تركنى التاكسى فى أول كوم الشقافة ترجلت تحت شمس حامية زاد مــن حــرارتها نسبة الرطوبة المرتفعة. شعرت بقطرات العرق تتجمع فوق وجهى لما بدأت أتوغل فى الطرق الترابية الملتوية الضيقة التى تشق المقابر بحثا عن مقبرة أسرتى. رحت أمسح عرقى كى لا يختلط بالأتربة المتطايرة وأنا أتجول بيــن المقابر المتلاصقة. وبسرعة انقض علىّ شخص زرى الهيئة، وسألنى عن مقصــدى. وذكرت له اسم جدى فقادنى متوثبا إلى شاهد رخامى قرأت فوقه اسم عمى، قلت له إن والدى ووالدتى قد دفنا هنا، فلوح بيده، وقال:

- مــن زمان قوى، تعيش أنت.. الأستاذ نعمان جدد التربة وهو اللى الرخامة دى..

توقفــت، وقــرأت الفاتحــة، ومنحــت الرجل عشرة جنيهات. وقلت لأمى: الحاضــرون لهم الذكر والغلبة يا أمى.. هذه هى النهاية على أى حال. هنا أو فى أى مكان. لكن حارس المقبرة لم يكن منشغلا بمثل تفكيرى، إذ قال وأنا أنصرف:

- قول حضرتك للأستاذ نعمان أن التربة قشرت.. عاوزة تدهن جير زى ما أنت شايف..

(١٠)

هنرى ستيوارت أبو مارك، ألقى القفاز فى وجهى وأنا أعتذر إليه عن مصاحبة ولده إلى مصر، متحججا أن الوشائج قد قطعت. لازلت أذكر قولته: هناك الأرض، والناس. أى أرض، وهل هؤلاء هم الناس..؟ لفظتنى المقابر إلى الطريق العام الذى يتجمع فيه البشر الأحياء تجمع الحشرات فى تحرك لولبى يفتقد الهدف والنظام.. أمى كانت تسمى هذا المكان البياصة، وفيما بعد عرفت أن تلك التسمية تحريف للفظ "البلاسا" كما هو فى اللغة الإيطالية. إذن جاء الطليان إلى هنا، يشهد بذلك الميدان الصغير وبقايا الأبنية ذات الشرفات المطعمة بالحديد، والورش الصناعية، والمدرسة الطليانى، ودون بوسكو. قبلهم، منذ أكثر من ألف عام، دخلت من هذا المكان قوات "عمرو بن العاص"، بنت مسجدا وتركت مقابر ورجعت إلى الدلتا، حيث استقرت، وذابت فى المياه المصرية الجارية منذ الأزل..

بعد أن أوليت بوابة المدافن ظهرى، شاهدت سيارة تاكسى مغامرة توقفت أمامى، بوهن بالغ خرجت منها امرأة تشبه المومياء، حركت ساقيها بإعياء وخرجت كأنها تخرج من الدنيا. فى الدقائق التالية أسرع نحوها شابان فتيَّان، أمسك كل واحد منهما بذراع من ذراعيها من تحت إبطها، وتقدما بها يخترقان البياصة الغاصة بالبشر والمركبات ليوصلاها إلى بيتها القريب. وقفت أتابع المشهد وأتأمله، معجباً بإنسانية الشابين، وفجأة، وبدون انتباه مسبق، خرق سمعى أزيز احتكاك عجلات سيارة بأسفلت الطريق إلى جوارى. نظرت إلى يمينى وشاهدت سيارة توقفت لتوها، تكاد تلامسنى.. بينما سائقها يغادر مقعده ويتجه نحوى مطلقا سيلا من السباب. اعتذرت له مرة، وأشرت إلى زحمة الطريق مرة أخرى ومشيت، وسمعته يلاحقنى بسبابه البذىء حتى تلاشى صوته وسط الضجيج.. ورغما عنى، وجدتنى أردد بينى وبين نفسى: الأرض والناس، ويقفز

إلى ذاكرتى مرة ثانية قول نعمان: إلى الأسوأ..

سرت وسط حشود من البشر، محلات تجارية على الصفين تشغل بضائعها أرصـــفة الشوارع: أقمشة، أخشاب مصنعة كأبواب ونوافذ، ورش، وباعة خضر، وفواكه وأكشاك خردوات. فضلت أن أمشى على قدمى.. أليست هذه هى الأرض، ألـــيس هؤلاء هم الناس..؟ قمت ببعض واجبى نحو الموتى، فلماذا لا أتعايش مع الأحـــياء..؟ لكـــن الأحـــياء لفظونى كما لفظنى الموتى.. حرارة الجو، والزحام، ومظهـــرى العـــام، شاركوا كلهم فى دفعى خارج الشوارع المتشابكة والمزدحمة، ووجدت نفسى أخيرا أجتاز ميدان محطة السكة الحديد، مشرفا على محطة الرمل. واصـــلت الســـير فـــى هدوء، هدوء الشوارع النظيفة وهدوء النفس التى تعودت مـــداراة القلـــق وكتمانه إلى درجة تقرب من الخداع. ورأيت أمامى سينما مترو ومقهـــى ومطعم "إيليت"، فقررت أن أتوقف لأستريح. وفى ثوان كنت أحتل مائدة من موائد "إيليت"..

القاعة التى تحدها جدران خشبية تمثل المساحة الأكبر لإيليت، كانت شاغرة إلا مـــن بعـــض الفتـــيان والفتيات.. اخترت مائدة ومقعدا بجوار نافذة تطل على الشارع، ورحت أرقب حركة السيارات الجارية بالقرب. لم آت إلى هنا فى شبابى وإن ســـمعت عـــن المقهـــى المشهور بارتياد الفنانين والمثقفين له، أيام أن كان بالمديـــنة حـــركة فنانين ومثقفين، يساريين فى أغلب الأحوال، هكذا سمعت. تقدم نحـــوى ساق مهذب، فطلبت قهوة، تأخر فى إحضارها فانشغلت فى مسح عرقى، وشـــردت مستعيدا ما مررت به بكوم الشقافة. وبعيدا عن مسار أفكارى حضرت عائشة..

رأيـــتها تمشى بالمنشية، متعلقة بذراعى كأنها تهم باحتضانى. وكنت أتطلع إلـــى البضائع المتناثرة فوق الأرصفة، وحلقات النساء المحيطات بها، بضائع ما ســـمى وقـــتها سوق سوريا الذى نشأ عشوائيا عقب حماقة الوحدة مع سوريا.. بضـــائع اســـتهلاكية تداعـــب أحلام الناس الخرقاء: أقمشة حرير، ملابس داخلية للنســـاء، مفروشـــات مزخـــرفة، جوارب، كنت أقول بتذمر: الضباط الذين خلعوا

الكاكى لم يخلعوا بعد أفكارهم السخيفة، يخربون المجتمع يا عائشة. ردت متنمرة: وهــل فــاروق كان أحسن منهم؟ تجاوزت عن سذاجة ردها، وقلت: المسالة غير هــذا، المفروض أن من يأتى للإصلاح يكون عنده فكر، كلامهم فيه كذب وسخافة ويبعث على الشك، ويتحدثون عن الاشتراكية ويسمحون للمهربين بجلب منتجات الماكس فاكتور من غزة، ويودعون المفكرين السجون. صاحت فى وجهى: كفاية بقــى، سيب الناس تعيش، وسحبت يدها من ذراعى. وقتها بادلتها غضبا بغضب، وقلت فى حدة: الناس فقراء ومحتاجون إلى ما هو أهم من أدوات التجميل..

يومهــا سرنا صامتين من المنشية حتى بحرى. انفصلنا قبل أن نبلغ البيت، وقــبل أن تتركــنى، قالت: شوف بقى.. أنت بتشتم الثورة كتير، وما بتحبش عبد الحليم حافظ، وده بيغيظنى.. أنا لما كنت صغيرة وسرق منى عم شعبان الساعاتى الساعة اللى جابها لى أبويا، مشيت خايفة مش عارفة أفكر، لحد ما وصلت راس التيــن، شفت دبابات لأول مرة وعساكر كتير، والناس كلهم كانوا واقفين حوالين السراية، ولما رجعت وجه أبويا سمعته بيقول إن فيه ثورة فى البلد وإنهم طردوا الملك فاروق، يومها نسيت خوفى وزعلى على الساعة، وفرحت قوى، قوى.. زى ما يكون أبويا اشترى لى فستان جديد. ثم مشيت وهى تكمل بانفعال: ما تشتمش الثورة قدامى أبداً.. أبدًا..

مشــيت مشوشا، حزينا، مشيت وحدى بعد أن تركتنى. لكنى عندما وصلت إلــى البيت وجدتها بانتظارى.. بين الطابقين، فى المساحة التى تفصل بين شقتى وشــقتها، كانــت الدرجات تسمح بخلوة مستترة عن الصاعد والهابط من سكان البيــت. فوجئــت بها واقفة فوق درج من الدرجات، ينطق وجهها بتأهب غامض يشــع مــنه سحر. لما حاذيتها أمسكت بيدى مسكا رقيقا، وهمست: لسه زعلان؟ أجبــت مــزدردا لعــابى: زعلان من إيه..؟ كانت أنفاسنا مختلطة، جسدانا تقريبا متقابلان لا يفصل بينهما شيء، ودنت بشفتيها وقالت:أنت حبيبى. ووجدت شفتيها فــى شــفتى فرحــت أضغط عليهما بجنون وأتحسس لدائن جسدها البكر بكفين متخبطين. كنت مجهدا ممزق الأعصاب، وكانت تلك أول مرة أتعرف على جسدها،

علـــى جسد أى أنثى.. علمتنى عائشة فى ذلك اليوم بتشجيعها لى، ونحن واقفين على الدرجات التى تفصل ما بين شفتينا، ما لم أجرؤ على تعلمه من قبل، منها أو من غيرها. فكيف يزعم الصياد العجوز الذى قابلته مصادفة منذ ساعة، أن حمودة علمها ورساها.. علمها ماذا ورساها على أى شىء..؟

مـــرة أخـــرى تدفقت صورة عائشة على ذاكرة بور فأحييتها. صور عائشة ليست صورا شخصية، إنها تتوسط مشاهد عامة تتمحور حولها.. وسألت نفسى: هل كان فشلى مع عائشة انعكاسا لفشلى بالوطن، فماذا كان بوسعى أن أكون غير ما كنت..؟ طبيعتى تنفر من المراوغة، تؤثر وتنقاد إلى الوضوح.. كنت ولازلت، الشىء الذى لا أستطيع تجنب تأثيره على نفسى، إننى رغم التعب والمعاناة وقلة الاقتـــناع الـــنهائى بقدر الغربة المفروضة علىّ، حققت ما خلقنى الله من أجله.. وتذكرت أحد طلابى بأكسفورد وهو يجادلنى، قائلا: بروفيسور.. عفوا، لقد حللت الـــنص بـــرؤية شـــرقية. سألته: هل هذا خطأ..؟ فأجابنى مبتسما، وفوق وجهه علامـــات رضـــا: لا، لكن أساتذتنا لا يفعلون هذا.. إنها إضافة أضفتَ على دلالات الـــنص رحابـــة.. أعقـــب تلك المجادلة نقاش حول نفسية "ليدى ماكبث" مقارنة بنفسية المرأة فى الأدب العربى الحديث..

كـــان ســـاقى "إيليـــت" قد أحضر القهوة ووضعها أمامى فى صمت، لمحته ولمحت القهوة لثوان، ولم ألبث أن نسيتهما. شرودى كان أقوى من أية ملاحظة. بعد حين مر الساقى بين الموائد، تطلع إلى القهوة، وسدد نظراته إلى وجهى كأنه يستفسر، واكتفى بأن قال بأدب:

– القهوة بردت.. تحب حضرتك أغيرها..؟

قلت كمن أفاق من غفوة:

– لا. شكرا..

ثم انتبهت إلى عدم رغبتى فى الانصراف. استطردت بابتسام:

– ثم أنى أنوى تناول غذائى عندكم.. ما رأيك..؟

وانتزعت نفسى من الشرود عبر حديث اختيار أصناف الطعام.

(١١)

ما كدت أصل إلى مسكنى، بعد أن تناولت الغداء بإيليت، حتى فوجئت برنين جرس التليفون. هذا أول رنين أتلقاه منذ أن جئت. من يطلبنى، ومن لديه الرقم..؟ قدرت أنها مكالمة خطأ أم لعلها مكالمة تخص مارك الذى بدأ يحشد الصداقات بعد يوم من وصوله..

كنـــت خـــلال رجوعى قد توقفت أمام معارض الكتب بساحة محطة الرمل، انتقيـــت بضعة عناوين حديثة لم أصادفها فى المكتبات العربية المتاحة بإنجلترا، وعزمت على قضاء ما تبقى من اليوم فى مطالعتها أو مطالعة بعض منها.. أردت فـــى واقـــع الأمر أن أصرف عنى صور عائشة المتلاحقة، وأن أخلص نفسى من ذكـــريات لم تكن تجلب لى إحساساً بالفخر والثقة، ذكريات تسلطت على ذهنى فى ظـــروف كلهـــا ضعف، لم أضع حساباً لها قبل أن أحضر إلى الوطن الذى نبذنى ونـــبذته.. هكذا استقر إدراكى بينما كنت أتأبط الكتب الجديدة التى ابتعتها، وأدخل مســـكنى متهيئاً للتفرغ لها، ويدق جرس التليفون ليفاجئنى. مددت يدى والتقطت سماعة التليفون، رفعتها إلى أذنى، لم تكن مكالمة خطأ، ولم تكن تخص مارك.

سمعت صوت نعمان..

- مساء الخير يا دكتور..

أردت أن أستوثق، فأكد لى بنفسه. قلت بتساؤل عفوى:

- خير يا نعمان..؟

- خير طبعاً.. أوحشتنى..

- كنت معك بالأمس يا رجل..

- نسينا أن نتحاسب أمس..

- أى حساب يا نعمان..؟

- لـك عـندى نقـود التعويض الذى دفعه المالك نظير بيتك الذى هدمه، اسـتقطعت مـنه إيجار الشقة المفروشة ويبقى لك الباقى فى ذمتى وهو جاهز للتسليم فوراً..

- ليس بين الخيرين حساب يا نعمان..

- إلا الحقوق يا دكتور..

- أمثالك يسمونهم فى الخارج بيوريتان يا نعمان، يعنى المتطهرين..

وضـحكت كى أجمّل المزحة. ألح فى طلب حضورى، وألححت فى الاعتذار وطلب الإرجاء. أخيراً عنّ لى خاطر اندفعت لمصارحته به بغير حساب. قلت له:

- لماذا لا تأت أنت إلى يا نعمان..؟ على الأقل كى تؤنسنى فى وحدتى..

ظهر فى صوته التردد، وغمغم:

- الأنفوشى مقلوبة..

ظننـت أنـه يشـير إلى صعوبة المواصلات، ونظرت إلى ساعتى.. الوقت تجاوز الرابعة. ألحقت بتساؤلى استطراد توضيحى. قلت:

- تعـال فـى أى وقت. لن أغادر البيت. تعال حتى فى الليل، إن كان هذا يناسبك..

أبـدى موافقـة بـاردة، وشـعرت أن فى صوته فتوراً. وبدون قدرة على استنتاج أسبابه، خالط مشاعرى شك بأنه قبل اقتراحى مضطراً..

أعرف عن نعمان منذ صباه الهدوء والاتزان، وانعدام الجموح أو الميل إلى المغامرة. ربما نتج ذلك عن تربية والده ـ عمى ـ له، وحرصه طوال حياته على الإشـادة أمامـه بمعـانى الاسـتقامة. ربما نتج ذلك كذلك عن تواضع حصيلته التعليمـية، إذ ألحقه أبوه بعمله ليعلمه منذ الصغر مهنته، ولم يبد نعمان تذمراً أو

غـيرة مـنى، بـل علـى العكس.. ظل يحبنى ويوقرنى، ويعتذر عن أن أبيه فى الأوقـات الـتى اشْتَمَّ خلالها أنه يقسو علىَ إبان محنتى. عرفت ذلك عن نعمان، لكـنى لـم أعـرف عـنه الإلحاح فى بغية يبتغيها.. فماذا وراء إلحاح نعمان فى مقابلـتى..؟ لـم أكـن مقتـنعاً بالسبب الذى ساقه، وامتلأت فور إرجاع سماعة التلـيفون بهـاجس متسلط متلفع بالغموض: إن نعمان يريد أن يرانى لسبب آخر يعلمه هو وحده، ولا أعرف عنه شيئاً..

تحققـت هواجسى وصارت علماً واقعاً لما وصل نعمان. لم يتأخر كثيراً كما قـدرت، وجـاء بعد نحو ساعة. دخل إلى الشقة وجلس فوق أحد مقاعد الأنتريه المفـروش بمدخلها، وأخرج من جيب سترته ربطة أوراق مالية، وشرع يشرح: قضية هدم البيت القديم، وحكم المحكمة بالتعويض، وقيمته، وحصتى فيه، والنقود الـتى أنفقهـا، ومـع ربطة الأوراق المالية مستندات وأوراق. كان مهموماً وهو يـتحدث، مشغول الرأس، بدا ذلك من عثرات جمله، ولم يكن فى المعلومات التى كـان يـنقلها إلى شيئاً جديداً، إذ كنت على علم بها من خلال رسائله إلىّ، وكنت أرسـلت له مـن إنجلترا توكيلاً عاما ليتصرف إنابة عنى. فلما أنهى حديثه الذى صبرت عليه، صارحته بصورة مباشرة ودون مقدمات:

- تـبدو مشغول البال يا نعمان، وأظن أن لديك حديثاً آخر معى غير حديث البيت والفلوس..

تنهد بأسى، وأجاب على الفور:

- ماذا أقول لك يا دكتور..؟

وتوقف برهة قبل أن يـ...

- حصلت مصيبة اليوم عندنا بالأنفوشى..

تنبهت حواسى، سألته على الفور:

- أية مصيبة..؟

أجاب بعد إبطاء:

- جريمة قتل.. جريمة بشعة..

سألت مهتماً:

- مــن..؟

- عليوة.. ابن أخ المرحوم الريس حمودة.. هل تتذكره..؟

ووجدتنى أنطق بلا ضابط يضبط لسانى:

- قابلته بالأمس..

وكدت أكمل مستطرداً: وزارنى فى الحلم وأنا نائم، لكنى أحجمت..

كان ردى كافياً لأن يشجعه فى الاستمرار فى الحديث. ثقل المفاجأة ووطأتها أيضــاً، جعلنى أتهيأ لحديث طويل يسوقه نعمان على سمعى، بل كنت متلهفاً إليه. توقعت أن يكون نعمان لديه ما يريدنى من أجله، لكن لم يخطر ببالى أن عليوة هو الموضـــوع.. طـــوال عمـــرى مؤرق بفلسفة الصدفة، فإلى أى معرفة مستعصية ستزداد حيرتى هذه المرة..؟

تكلـــم نعمـــان.. بدأ الكلام بالإشادة بشهامة عليوة وجدعنته، رجل ولا كل الرجال، تربية حمودة النبيل الشجاع، اصطحبه منذ صباه فى معظم رحلات الصيد، علمـــه فنون الحرفة والصبر على قسوة البحر ومفاجآته وتجنب غدره. لذلك كان من المنطقى والطبيعى أن يرث عليوة حرفة عمه وموقعه بعد وفاته، صار الناس يـــنادونه الـــريس عليوة بعد أن أخذ موقع حمودة كرئيس للصيادين على مركب الـــريس بكر. بعد وفاة الريس بكر، أبقت عائشة عليه كريس للمركب بالرغم من أنهـــا كانت تحمل له ضغينة قديمة، ودست ضمن الصيادين العاملين على المركب زكريا بن شقيقتها الكبرى، وفرضته على عليوة سكوندو، يعنى ريس تانى. عليوة لم يكن يحبه، وكانت له مآخذ على كفاءته وأخلاقه: مستهتر طويل اللسان يشرب الخمـــر أثناء العمل. مع ذلك انصاع لأمر عائشة حرصاً على عمله حتى شحطت

المركــب وتخلصت منها عائشة. كل الشهود يشهدون أن المركب شحطت نتيجة خطــأ وقــع فــيه زكريا السكوندو.. على أية حال رُفع العبء النفسى عن كاهل عليوة، وبدأت عائشة مباشرة عملها الجديد كتاجرة، وبدأ عليوة بدوره يبحث عن مركــب أخر يعمل عليه، تزكيه كفاءته وسمعته وقرابته الشهيرة للريس حمودة. اخــتاره الحــاج ياقوت، وهو رجل طيب القلب كريم النفس ومتدين، ليعمل على مركــبه، واخــتار هــو بدقةٍ عماله مستفيداً من خبرته وأخطائه السابقة، وطلع بالمركــب الجديدة ــ وعماله المنتقين بدقة ــ رحلات صيد عديدة ومبارك فيها، علــى مــدى الســنوات الفائتة. نظام العمل على مراكب الصيد، حسبما جرى به العرف وقواعد السوق، يتطلب تمويلاً مالياً للمراكب يقوم به التجار نظير حصيلة الصــيد يسمونه ارتباطا. كان الحاج ياقوت من قبل مرتبطاً بأكثر من تاجر، فلما عرضــت عليه عائشة بعد مباشرتها عملها الجديد الارتباط به مشاركة مع تاجر كبــير هــو المعلــم سلامة، قبل فوراً، وبدأ الثلاثة شركتهم التى خرجت منها كل المشاكل: لم تكن عائشة تريد أن تنسى ضغينتها على عليوة، وكان سلامة يكرهه ويــردد أنــه عصــبى ومغرور، أما الحاج ياقوت فكان مسالماً ينفض يده من كل الحــزازات والتقولات. ودخل المشاكل فى الأيام الأخيرة ولد مدلل رقيع، شاب من شباب الأيام السيئة، اسمه إيهاب: ابن سلامة وصديق زكريا، مشكلة عليوة الذى تصور أنه تخلص منها نهائياً.. هذا الولد الرقيع الفاسد هو الذى قتل عليوة، طعنه بمطواه فى صدره نفذت إلى القلب مباشرة، اليوم الساعة الواحدة.. ظهراً..

الــيوم، الســاعة الواحــدة ظهــراً..؟ كنــت هناك. عصرت ذاكرتى.. متى مشيت..؟ نحو الثانية عشرة. إذن فقد قتل بعد أن جئت أبحث عنه بساعة. معضلة الصدفة مرة أخرى..

طوف بى فى غور وهدة مظلمة طيف متسربل بالإبهام، قال: أنا أبوك الذى ولــد لــيموت. وتردد بعده نحيب أمى ونشيجها المتهدج وصوتها الآتى من بؤرة ذاكــرة غائــرة: كان ماشى فى حال سبيله فى المنشية. جت عربية نقل وخبطته، اللى جم يبلغونى قالوا إنه طار فى الهوا ووقع، ما نطقش بكلمة، ألف رحمة تنزل

عليه. كانت تحكى كأنها تسـر إلىّ.. لم أنس. وكنت كبرت. ملأت الصورة رأسى وشغلته، فكرت كثيراً وطويلاً، ولم أفهم. فقط عرفت: يولد الإنسان ويفرح بالحياة، تلـك هى الخدعة.. لأن الموت متربص للفرح، بلا معنى ولا منطق، وكل ما عداه وهم وكذب. البطش باق ومتلون، والخدعة مستمرة..

تعددت الأسباب، وما استطرد إليه نعمان، أضاف صفحة جديدة لكتاب الموت الذى لا ينتهى.. الموت الذى تلده نوازع البشر الملتوية المعقدة..

(١٢)

ظـل نعمـان يـتكلم بيـنما ظللت بدورى أنصت، فلما انتهى نطقت بنبرة حشرجة:

- كيف وقعت الجريمة..؟

أجاب والمرارة فى حلقه ترعش صوته:

- لـم أكن موجوداً فى مكان وقوعها، لكنى سمعت ابنى يتحدث مع بعض أصحابه، فلما استوثقت جريت إلى ميناء الصيادين، منعنى العساكر ولكن الـناس هـناك أكدوا لى.. أنت عارف، الرجل معرفة قديمة، أعرفه من الصغر، تربينا سوا..

سألت ثانية:

- وتأكدوا من موته..؟

قال:

- أنـت عـارف.. مستشـفى راس التين على بعد أمتار، ونقطة البوليس مترين من الميناء. نقلوه بسرعة للمستشفى، والأطباء قالوا للناس البقية فى حياتكم..

وازدرد لعابه وأضاف:

- سـبحان الله.. الـناس دول ولاد موت.. الريس حمودة كان ينضرب بيه المـثل فـى الصحة والقوة، عيشه لما حكت حكاية موته قالت إنه شهق وأسـلم الـروح فى دقائق.. عليوة نفس الحكاية.. الوله المجرم ضربه بـالمطواه، وقـع على الأرض من غير ما ينطق، مع إن صحته كانت.. سبحان الله..

الكلمات تزاحم حلق نعمان وتتعثر فوق لسانه، فى نفس الوقت أتمثل صورة عارضة لم أتوقف لكى أتملاها وأعرف غورها: يندفع الشاب نحو عليوة وبيده المطواه مسددة إلى صدره، وفى جانب آخر، وفى نفس التوقيت، وتحت شمس حامية وأتربة متناثرة، تدفعنى قدماى إلى داخل المدافن أبحث عن قبر أمى وأبى.. معضلة الصدفة مرة أخرى..؟

وأنا مأخوذ بالمعنى الغائم للصورة العارضة، شد انتباهى نعمان وهو يستطرد قائلاً:

- الوله إيهاب بن سلامة ده راضع شر من صغره.. طول عمره جايب مشاكل لأبوه، انتقام ربنا منه، أصله راجل وحش ومفترى.. وهو صغير كان يضرب الأولاد فى الرايحة والجاية، وما كملش تعليمه لحد أبوه ما زهق منه، ومع ذلك أجبر أبوه يشترى له عربية، فضل رايح جاى يعاكس بها البنات. ومرة كان حيعمل بها مصيبة.. ضحك على بنت صياد غلبان من رجالة عليوة وخدها لشقة عيال أصحابه فى الرمل، البنت لما عرفت نيته قاومته وعملت له فضيحة وهربت منه وراحت قالت لأبوها، الراجل الغلبان اشتكى لعليوة. عليوة جاب الوله عند أبوه، الوله قل أدبه فى عليوة قدام أبوه، ضربه عليوة على وشه، إيد عليوة ما شاء الله كانت زى المرزبة، وجعت الوله قوى.. لما سلامة ما قدرش يدافع عن ابنه، الوله مشى يهدد ويصرخ ودخل دكان عيشة يشتكى لها، هدته عيشة وبعتت لعليوة وصرخت فى وشه: وإيه يعنى.. ده شاب. ومن يومها والوله شايلها لعليوة. من أسبوع حصلت مشكلة.. عيشة طلبت عليوة والحاج ياقوت صاحب المركب، وقالت لهم: زكريا بقى كويس وأنا عايزاه يطلع على المركب، ده برضه ابن أختى وما يصحش نسيبه خالى شغل، عليوة رفض وصمم، والكلام كتر كل يوم والمركب فضلت واقفه فى المينا أسبوع لحد ما الحاج ياقوت صرخ وقال: ده وقف حال. امبارح الوله إيهاب راح لعيشة وأبوه ودافع عن زكريا صاحبه لما سمع إن

علـــيوة حيطلع بالمركب النهارده الصبح من غير ما ياخد زكريا، وصرخ وقال: حياخده برضاه أو غصب عنه. والنهارده جه بعربيته ومعاه زكريا جاهـز للطلـــوع ولابـــس الطزلج، وركن العربية جنب المينا، والمركب خلاص كان عليوة مجهزها تطلع، وحصل اللى حصل..

سألت أبغى الاستزادة:

- ما الذى حدث..؟

قال نعمان:

- أنـــا مـــا كنتش موجود هناك زى ما قلت لك، الناس اللى شافوا الحادث قالوا لى، وكلامهم كلهم واحد.. الوله إيهاب دخل المينا هايج زى التور، شاف عليوة واقف جنب المركب على الرصيف، كلمه بخشونة، عليوة رد علـــيه بكلمه واحدة: إمشى يا وله روح ألعب، ومشى عشان يطلع على المركـــب. الوله زعق عليه، التفت عليوة.. فهجم الوله وضربه بالمطواه فى صدره غدر..

ثم توقف وسألنى زائغ النظرات:

- كنت تعرف عليوة يا دكتور..مش كده..؟

أجبته وسط الشرود الذى حط علىّ بتأثير كلامه:

- عرفته أيام شبابنا، لكن مكناش أصدقاء..

تنهد، وقال:

- عشان كده كنت عاوز أقابلك..

غضضـــت النظر عن تصريحه البرىء. كان رأسى مشغولاً بأمور شتى أثر حديثه معى، على رأسها كانت عائشة.. ووجدتنى بلا تردد أسأله:

- قلت يا نعمان إن عائشة كانت تحمل لعليوة ضغينة ما سببها..؟

زفر وأجاب:

- حكاية قذرة من أيام الريس حمودة، بعد ما تزوجها بسنوات..

وروى: الـناس كلامهـم كتـير وكلامهم فارغ وعائشة طول عمرها كانت جريـئة ولا تعمل حساباً لكلام الناس. بعد أن تزوجت من حمودة، كانت تمر كثيراً علـى دكـان أبيها تقعد معه أثناء غياب زوجها فى رحلات الصيد، وكان سلامة أيامهـا لا يـزال شـاباً، وحضر أكثر من مرة إلى دكان الريس بكر وهى وحدها وأبوهـا غائب فى حاجة من حاجاته. الناس شنعوا عليهما، قالوا إنها على علاقة بـه. وصـل الكـلام إلى حمودة، ولأن حمودة كان واعياً جداً وعقله كبير، حرق الحكايـة كلهـا وتقـرب -أكثر من ذى قبل- من صديقه الحاج بكر حتى أسكت الشـائعة دون كلمـة واحـدة ينطق بها. لكن عائشة لم تنس. لم تنس تحديداً أن علـيوة نصـح عمه أثناء الأزمة، وفى حضور أبيها، أن يطلقها، كان شاباً يافعاً وقتها.. غيرة شباب..

وبرغمى، وجدتنى أعقب بلا رقيب على لسانى:

- غـيرة شباب، لم تعقلها وقتها ولم تنسها، وربما مهدت لقتل الرجل فيما بعد..

أسرع نعمان إلى النفى والاستنكار..

- لا يا دكتور.. عيشة لا دخل لها بجريمة اليوم..

قلت، وقد تملكتنى قسوة:

- ألـم تقـل يا نعمان إنها وطدت عملها مع سلامة، وإن الولد حين ضربه علـيوة ذهـب إليها يستنجد بها، وإنها هى التى خلقت الأزمة بمحاولة إرغام عليوة على قبول زكريا السكير ضمن طاقم المركب..؟

صمت نعمان فى مواجهة حدة نبرتى التى فاجأته، ولم يستطع أن يرد على تحليلى الصارم الممتلئ قسوة.

كنـت أشـبه بمحقق يؤدى عمله ببراعة تلقائية.. لماذا..؟ هل تفجر حبى

القديم لعائشة فإذا به يكشف عن كراهية تبغى تدميرها، أم أن جوهر الفتاة التى تعلقت بها منذ صباى كان يضمر شرا ويرشحها للجريمة..؟ وتماديت فى خواطرى فتمثلت نفسى ضحية لشر عائشة..

نهض نعمان مستأذناً أن ينصرف. حاولت أن أستبقيه، فقال إن ابنه وحده بالمحل، ولابد أنه بحاجة إلى العودة للبيت كى يستذكر دروسه. توقفت عن المحاولة تقديراً، وسألته وهو ينصرف عن جنازة عليوة، فقال:

- قبل ما أجيلك ما كانتش النيابة وصلت.. المسألة مرهونة بقرارها. حابلغك بالتليفون..

سألته مرة أخرى عن الولد القاتل، فرد بإعياء:

- حاول أن يهرب، ولكن الناس تجمعوا حوله وسلموه للبوليس..

وانصرف.

(١٣)

رجع مارك إلى البيت فى نهاية ذلك النهار متأخراً، فوجدنى جالسا بالشرفة أحـدق فــى صـفحة البحر الذى لم يعد يناجينى كما كان يفعل فى الماضى. ألقى التحية منتعشاً ومبتهجاً، فمارست دور الأبوة وسألته بصورة روتينية:

- أين كنت؟

قال بنفس الانتعاش:

- ذهبت مع الزملاء إلى أبى قير.. أكلنا سمكاً شهياً، وعاينت خليج نيلسون الذى هزمنا فيه نابليون..

استخدم صيغة الجمع فى إنجليزيته المفعمة بالفخامة، فعقبت عليه بتهكم:

- بعـد أيام آخذك بدورى ولكن إلى رشيد حيث ضرب أهلك بالحلل وأوانى الطعام ومعهم "فريزر" قائدهم..

وغمغمت مستطرداً بالعربية:

- ولـو أنهم عادوا بعد ذلك بنحو قرن لينتقموا.. لم ينسوا فضيحتهم التى ألحقها بهم المصريون الغلابة..

لم يستطع متابعة ألفاظى العربية، وسأل متلهفاً:

- ماذا قلت يا بروفيسور..؟

فأشحت بيدى مشغول البال..

- لا شىء مارك.

لاحظ وجومى، فاستفسر:

- تبدو متضايقاً بروفيسور..

قلت:

- صحيح..

سأل:

- هل لى أن أسأل عما يضايقك..؟

فتهكمت وهزلت..

- عائشة انتقمت هى الأخرى من عليوة..

فاندفع قائلاً:

- عائشة كانت معنا طول النهار..

ابتسمت أغطى على المرارة التى كانت تملأنى، وفى مواجهة ابتسامتى تنبّه وسأل مستدركاً:

- من عليوة..؟

قلت وقد عدت إلى شرودى مستخفاً به:

- بطل حكاية شعبية عربية قد أرويها لك فى يوم من الأيام يا مارك..

دخل الليل فى ذلك اليوم وأنا أحاول التقليب فى الكتب التى ابتعتها من محطة الرمل بلا رجاء أن أفرغ لواحد منها. برز أمام عينى من بين تلك الكتب كتاب لأنور عبد الملك عن الجيش فى السلطة فى مصر، وكتاب الحزب الهاشمى لسيد القمنى، ورواية نجيب محفوظ "رحلات ابن فطومة" التى لم أكن قرأتها. أخيراً نال منى اليأس من محاولة القراءة، واستبد بى السأم، فذهبت إلى غرفتى لأنام..

نمت، واستيقظت فى الصباح وبقيت فترة متكاسلاً على غير عادتى. خرج

مارك بعد أن مر بى وأعلن أنه ذاهب إلى الجامعة. غادرت سريرى بعد انصرافه، ذهبت إلى الحمام، وبعده تناولت كسرة من الخبز مع قطعة جبن، ثم أعددت فنجان قهوة. جلست أسعى إلى محاولة القراءة، واخترت كتاب سيد القمنى "الحزب الهاشمى"، وقطعت شوطاً فى القراءة. رن جرس التليفون.. كان نعمان على الطرف الآخر:

- النيابة صرحت بالدفن يا دكتور..

- يعنى توجد جنازة..

- أيوه. الساعة اثنين.. حتيجى..؟

- بالطبع. ولو أن أحداً لا يعرفنى..

- سأكون معك..

- البقية فى حياتك وشكر الله سعيك..

- غفر الله ذنبك يا دكتور..

وقلت وأنا أضع سماعة التليفون فى مكانها: غفر الله ذنب من أذنب..

أستاذ الأدب العربى بجامعة أكسفورد، المغترب عن وطنه وأهله، يذهب لتشييع جنازة صياد فقير، بدافع وشائج قديمة ربطته بمن حرضت على قتله. حرضت..؟ من أين لى هذا التسليم..؟ هل أحمل ضغينة بدورى نحو عائشة، وماذا تمثل عائشة بالنسبة لى أكثر من ذكرى معتمة وغائرة..؟ هل أحببتها بالفعل أم كانت مجرد وهم من أوهام زمن الشاب الضائع..؟ وما معنى كل هذا الاهتمام بها الذى كلما طمسته فى نفسى، تجدد بفعل الصدف فضج بالحياة من جديد..؟ قتل الإنسان، ما أعقد خبايا نفسه.. ولسبب غير واضح، برق فى ذاكرتى مشهد المحاضرة التى عقدت خلالها الارتباط بين "ليدى ماكبث" وبعض شخصيات الأدب العربى الحديث النسائية، وقول الطالب الصغير إنها رؤية شرقية.. هل مازالت المياه الشرقية تجرى فى جذورى إذن؟

حسبت الوقت فى رأسى بدقة. كنت حريصاً على أن أصل فى موعد الجنازة، لا قبلها بكثير أو بعدها.. لماذا ذلك الحرص..؟ لكى لا ألفت أنظار أحد من السيالة من ناحية، ولكى لا تفوتنى الجنازة من ناحية أخرى. وقلت من جديد: قتل الإنسان، ما أعقد خبايا نفسه..

كان الوقت يسمح بأن أتناول فنجان القهوة بمحطة الرمل، نزهة انتقالية أو محطة أستريح خلالها وأجهز نفسى لخوض مغامرة تشبه النزوة المتسلطة. اخترت مقعداً بديليس يطل على حديقة سعد زغلول المواجهة للبحر. السيارات الخاصة والحافلات مكدسة والمارة يزاحمونها، تكاد معالم الحديقة أن تختفى وراء التكدس والبحر يتوارى فى إقصاء. وتذكرت لحظة وصولى منذ ثلاثة أيام، وقول نعمان: إلى الأسوأ. واخترقت نظراتى حشود البشر والمركبات، وتعالت حتى ثبتت على تمثال سعد زغلول، وتحرك الكلام فى داخلى من غير أن يتحرك لسانى، قلت أخاطب التمثال: أخيراً حكم المصريون أنفسهم يا زعيم وفد المطالبة بجلاء الأجنبى عن بلادهم. وارتفعت نظراتى أكثر علواً، فانتبهت إلى غيوم تجمعت فى قبة السماء لم ألحظها وأنا أغادر سكنى منذ دقائق.

متباطئاً رحت أرشف قهوتى، وأثناء سهومى جرى الوقت المقدر. تطلعت إلى الساعة فى معصمى وقررت الانصراف على الفور. دفعت حساب القهوة وخرجت من باب ديليس المواجه للبحر، فلفحتنى فور خروجى نسمات باردة..

لما وصلت إلى السيالة، شاهدت نعمان من أول الشارع واقفاً فى انتظارى أمام مدخل دكانه. اقتربت منه وسلمت وحييت ابنه الجالس بالداخل ومشينا. همس وهو يمشى إلى جوارى، بعد أن نظر يميناً ثم يساراً:

– النيابة استدعت سلامة أبو الوله النهارده الصبح، وعيشة كمان..

سألت باهتمام:

– ولماذا عائشة..؟

قال بصوت خافت:

- الوله حكى للنيابة حكاية ضرب المرحوم له، وشَهّد عيشة عليه..

قلت مدارياً ما يضطرب بنفسى:

- كلام سابق لأوانه يا نعمان..

فلــزم الصـــمت. وقـــادنى إلـــى شارع سيدى ياقوت المتفرع من السيالة، فشـــاهدت الســـرادق المقـــام للجنازة أمام بيت عليوة أول الشارع. أدهشنى حشد المعزين، داخل السرادق ومن حوله خارجه، وعبرت لنعمان عن دهشتى، فقال:

- الـــناس كلهم بتحبه وتقدره، وما تنساش إنهم كانوا بيعتبروه ابن حمودة الله يرحمه..

مـــررنا بين صفوف المقاعد المتلاصقة، والمشغولة فى معظمها بالمعزين، داخل السرادق، حتى عثرنا على ثلاثة أو أربعة مقاعد خالية، جلسنا فى صمت لا يخـــترقه غـــير صـــوت القارئ يترنم بآيات القرآن الكريم. دخولى مع نعمان إلى الســـرادق لفت الأنظار، ولاحظت بعد أن جلست أن عيوناً فاحصة راحت ترمقنى، هـــل لا يـــزال أحـــد يتذكرنى..؟ من بين العيون التى سلطت على اكتشفت عينين كليلتيـــن كنت أعرفهما: الصياد العجوز الذى قابلته بالأمس. ما أن شاهدنى، حتى هـــز رأســـه بالتحية، وفوجئت به ينهض مغادراً مقعده ويتجه نحوى. كان المقعد المجـــاور لى واحداً من المقاعد الخالية المتبقية.. اقترب منه، وجلس. وقلت: يا لها من رفقة..

همس وهو يدقق النظر خارج السرادق:

- الشتا باين عليه حيبدأ بدرى السنة دى..

لـــم أرد عليه حفاظاً على الصمت الذى كان يجلل السرادق، وخابت نيته فى الاسترســـال. ومن موقعى شاهدت سيارة طبية تقترب من السرادق، وتعدل اتجاه ســـيرها، حتى توقفت بظهرها قريباً من مدخله، فعرفت أنها السيارة التى تحمل جـــثة القتـــيل، وســـرت همهمات داخل السرادق، ولم يلبث مرتل القرآن أن ختم ترتـــيله، وبـــدأ المشيعون فى النهوض. قمت مع القائمين، وإلى جوارى نعمان،

وخلفى مباشرة العجوز الذى شعرت به يتشبث بى يكاد يمسك ملابسى..

تحركت الجنازة، تتقدمها السيارة التى تحمل الجثة فى داخلها، فى اتجاه مسجد أبى العباس القريب. ثم توقفت فى الساحة الخارجية للمسجد لصلاة الجنازة، نقلت الجثة متلفعة بالكفن من داخل السيارة إلى صحن المسجد، وبدأت الشعائر، وتوقف المشيعون فى الساحة الخارجية عدا اللذين صحبوا الجثة إلى داخل المسجد للمشاركة فى الصلاة. وقفت مع المنتظرين، وذهب نعمان لينضم إلى الصلاة، أما العجوز فظل متعلقاً بى..

حين أخرجوا الجثة من داخل المسجد، بعد انتهاء الشعائر، وقف أقارب عليوة لتلقى العزاء، فوجئت بنعمان ينضم إليهم ويقف فى صمت يتلقى العزاء. انتظرته حتى انتهى، ثم أمسكت بذراعه ونحيته بعيداً عن صف العزاء، وهمست فى أذنه:

- لن أذهب إلى المدافن معكم، فقد كنت هناك بالأمس..

طيب خاطرى، وقال:

- لا يا دكتور. أنت عملت الواجب.. شكر الله سعيك..

مع ابتسامة واهنة، قلت:

- احترس من التربى.. يترصدك..

ضيّق ما بين جفنيه، وتساءل:

- ماذا يريد..؟

حافظت على ابتسامتى الواهنة..

- عاوز فلوس.. يقول إن تربتنا محتاجة إلى طلاء..

تأفف وعَقَّب:

- ناس فى دمهم الطمع..

ولحق سريعاً ببقية الجنازة المتجهة إلى المدافن.

(١٤)

تحركـــت مـــن ساحة مسجد أبى العباس بعد أن انفضت الجنازة، وتمشيت بجوار البحر فى اتجاه الأنفوشى. الغيوم تظلل المدينة وتنذر بمطر فى غير موعده والطقس دافئ ورطب. لما وصلت إلى مدخل المقهى وجدته خالياً تماماً، وشاهدت الســـاقى يقــف لدى بابها، ما أن لحظنى حتى ابتسم مرحباً.. ألفنى، وإن لم تخل عيناه من تساؤل خفى. جلست فتقدم نحوى وحيانى وقال:

- ربنا غضبان من ظلم الناس..

فهمت إشارته، لكنى تجنبت مجاراته، طلبت قهوتى فانصرف يحضرها، ولم تمـض برهة إلا وجدته يضعها فوق المائدة التى تجاور مقعدى. وفى ثوان، وقبل أن أبــدأ فــى ارتشــاف القهــوة، انشقت الأرض وظهر الصياد العجوز أمامى، وشاهدته وهو يعدل من وضع المقعد المواجه لى ويجلس قبالى، قائلاً:

- شكر الله سعيك يا أستاذ..

فهمــت أنـــه يلمح إلى مشاركتى فى الجنازة، فاكتفيت بالرد التقليدى الذى تعود عليه المسلمون فى العزاء: غفر الله ذنبك. لكنه لم يصمت..

- الله يرحمه.. كان عِنْدى.. جاب لنفسه المصايب..

وبغير ترتيب، أو لترتيب يخصه وحده، سألنى:

- كنت تعرفه يا أستاذ..؟

أجبت بمضض وقلة ترحيب:

- سبق أن أبلغتك.. أيام كنا صبية وشباب وقبل سفرى إلى الخارج..

ردد:

- فيك الخير والله..

ثم أضاف:

- الدنيا لسه فيها خير..

بدأ السأم يتملكنى، ففكرت فى مغادرة المقهى. رشفت رشفتين متتابعتين من قهوتى تمهيداً لانصرافى، وإذا به يواصل الحديث الذى استبقانى فيما بعد برغمى. سمعته فجأة، يقول:

- الصيادين دول يا أستاذ ولاد موت، ما يموتوش فى البحر قد ما يموتوا على البر لأهون الأسباب، والواحد منهم تشوفه فتلقاه زى الجبل، ويخبط فى عمود أو يتكفى على وشه ويخر ميت. الريس حمودة الله يرحمه كان يقف على المركب وقت النوة زى السبع، ويرجع بيها سليمة بعد أسبوع فى البحر الهايج. وكان يتعارك مع التجار المفترين وصبيانهم وعمره ما خسر معركة، ولما مات سلم الروح فى حضن مراته وهو بصحته. المرحوم عليوة نفس الحكاية.. استفز الوله إيهاب فضربه بالمطوه فى صدره، طب مات. عارف يا أستاذ.. بيقولوا الصيادين بيحيضوا زى النسوان.. الحقيقة بقى أنا عارفها. الدم ده اللى بينزل منهم سببه البواسير والبروستاتا، وما يبانش عليهم.. عايشين فى الميه على طول والرطوبة.. عشان كده بيقولوا برضه المره فى بحرى هى الراجل فى البيت.. الرجالة اللى أنت بتشوفهم هنا مش مكفيين نسوانهم..

رحت أحملق فى وجهه المتغضن منذ هنيهة.. مخبول كما استنتجت يوم أمس. أم صريح مفتقد إلى الرقابة على نفسه؟ فى ثوان لخص لى أسرار محنة رجال البحر بما لم تسجله دراسات مراكز البحوث ـ ربما ـ فى مجلدات. ووجدتنى أقول فى داخلى: يا عجوز يا ابن الكلب.. من ألقاك فى طريقى الملىء بالعثرات.. صدفة أخرى، أم تدبير من قوة قاهرة دفعك إلى تتبع خطاى؟

ما أن أنهى حديثه، حتى سألنى بعد أن تنهد:

- أستاذ.. عندى مشكلة يا ريت تقدر تخدمنى فيها..

فوجئت بتغيير حديثه. قلت:

- تحت أمرك يا عمى، إن كنت أستطيع..

قال بسرعة:

- تقدر إن شاء الله..

وحكى حكاية شاب، ابن شقيقته، قال إنه طفش وعرفوا أنه يعمل مؤخراً فى شـركة ملاحة إنجليزية، أمه ستجن بسبب غيابه، والولد لا يسأل، ومطلوب منى الاتصـال به بعد عودتى إلى إنجلترا، وحثه على الاتصال بأمه. العنوان ـ عنوان شـركة الملاحـة الإنجليـزية معه ـ لكنه فى البيت. ورجانى أن أعطيه تليفون سـكنى كى يمليه علىّ تليفونياً.. كيف عرف أنى أقيم بإنجلترا..؟ هل أبلغته أثناء حديثى معه بالأمس..؟ لا أذكر. ووسط تشوش رأسى طاوعته، معلقاً قضاء الأمر علـى ظروفى حين عودتى، فرأيته يخرج سريعاً من جيبه ورقة طالباً منى تدوين رقم تليفونى بها. أخرجت بدورى قلماً من سترتى، وسجلت له الرقم المطلوب.. اخـتطف الورقة من يدى، وقام متعجلاً بعد أن شكرنى بألفاظ كثيرة فيها كثير من المبالغة.

وهـو يمشى مهرولاً بخطى متخبطة، رأيت ساقى المقهى يظهر عند بابها ويتابعه بنظراته، ثم يلتفت إلى قائلاً:

- حكى لك إيه النهارده..؟

ثم لا ينتظر إجابتى، ويكمل:

- ما تاخدش فى بالك يا بيه.. ده راجل مخلول ودماغه ضارب..

قمت، ودفعت له حساب القهوة، وانصرفت..

تناولـت الغداء فى محطة الرمل، وشاهدت أثناء ذلك من خلف زجاج نوافذ المطعـم، الـرذاذ يتساقط من السماء حتى يغطى أسفلت الشارع بطبقة رقيقة من الماء. خفت أن يشتد المطر، فقررت العودة إلى البيت..

حيـن رجعت إلى مسكنى، وجدت مارك قد سبقنى، رجع مبكراً بخلاف يوم أمس واليوم الذى سبقه. قال متهللاً فور أن رآنى:

- بروفيسور.. وجدت مسكناً ممتازاً..

سألته متأثراً بالمفاجأة:

- أين..؟

قال وهو مازال فى فرحته:

- بالقرب من الجامعة، وفى منطقة تدعى سوتر.. بجوار مسكن عائشة..

تهاويـت فـوق أحـد المقاعد. عائشة.. هل سأرقب قصة مكررة..؟ قلت بهدوء:

- من دلّك على ذلك السكن..؟

اندفع مجيباً:

- عائشة نفسها.. وذهبت معها وعاينته اليوم..

ووجدتنى أهرب من اسم عائشة، فأسأل مارك:

- وهل تعرف من هو سوتر الذى سميت المنطقة باسمه..؟

قال بسـرعة:

- سألت عائشة فقالت أحد البطالمة الذين حكموا مصر بعد الإسكندر..

عائشـة أيضـاً. لا مهرب. لكنى سمعته يرد لى الكيد، ويستأنف معقباً بلؤم ومتضاحكاً:

- ليس الإنجليز وحدهم يا بروفيسور..

فرددت الصفعة..

- الـبطالمة يـا مـارك وغيرهم دخلوا مصر وذابوا فى شعبها ودفنوا فى

أرضـــها، بينما آخرون ركبهم عنادهم إلى أن قادهم غرورهم إلى الطرد منها..

وانتبهت بغتة. وسألت نفسى: ما هذا الواعز الوطنى، من أين أتى لمغترب قديـــم، وهل كان هنرى أبوه على حق حين تحدانى، ونبهنى إلى الأرض والناس؟ كيف احتملت غربتى طوال ذلك الزمان؟

شـــعرت أن ردى علـــيه كان فيه من القسوة أكثر مما يتحمل الهذر. غيرت الموضوع، عدت إلى عائشة..

- أحببت عائشة يا مارك..؟

- أظن ذلك بروفيسور..

- بمثل هذه السرعة..؟

- الحب لا يحتاج إلى زمن كى يقع..

- وماذا ستقول لأبيك..؟

- سوف آخذها إليه فى إنجلترا، وأخشى أن يقع بدوره فى حبها..

وضـــحكنا. غير أنى شعرت بعفريت يتلبسنى ويوحى إلى أن مارك جاد فيما تحدث عنه..

بعـــد أن أمضـــينا وقتا مرحا تركت مارك وحده، وذهبت إلى غرفتى لأختلى بكتبى. قضيت الوقت المتبقى من النهار وجزءا من الوقت فى قراءة متصلة حتى غلبـــنى الـــنوم. نمـــت واستيقظت مفزوعا على صوت رنات متتابعة من جرس التليفون. غادرت مرقدى وهرعت كى أرد. التقطت السماعة فسكت الرنين.. ألو، ألو، ألو.. ولم يجب أحد من الطرف الآخر.

(١٥)

عاودت نومى واستيقظت فى الصباح التالى. أول ما قابلت مارك سألته عما إذا كـان قد تواعد على مكالمة تليفونية ليل أمس، فأجاب أنه سمع رنين التليفون بـالأمس لكـنه لم ينهض للرد عليه، لأنه من الأصل لا يعرف الرقم، وبالتالى لم يسجله لـدى أحد من الذين بالكاد تعرف عليهم. دب القلق فى نفسى واحتوتنى حـيرة: هـل يحـتمل أن يكـون نعمـان..؟ ولماذا اتصل نعمان فى ذلك الوقت المتأخر..؟ كارثة جديدة وقعت، وعبر ساعات يوم أو يومين..؟

اختطفـت سـماعة التليفون، وأدرت رقم تليفون بيت نعمان، إذ كان الوقت مبكرا.. الثامنة من الصباح على وجه التقريب..

- صباح الخير يا نعمان..

- صباح الخير يا دكتور.. خيرا..

أدركـت أنـى نقلـت إليه قلقى، وهبط علىَّ إحساس بأسف ثقيل، وتعمقت حيرتى. مع ذلك سألته:

- أنت كلمتنى بالليل..؟

- أبدا.. إيه الحكاية..؟

- شـىء غريب.. التليفون دق عندى، فلما استيقظت ورفعت السماعة لم يرد أحد..

ضحك، وقال:

- معلهـش. تعيش وتاخد غيرها.. المعاكسات كتير قوى، كلنا نشكو نفس الشكوى..

- فى الليل يا نعمان..؟

- وفى الفجر يا دكتور.. ناس رايقة..

عــبرت عن أسفى لإزعاجه فى أول الصباح لكنه انتهز الفرصة لدعوتى للغداء فى بيته، فشكرته واعتذرت.

وما أن أرجعت سماعة التليفون إلى موضعها حتى رن الجرس..

- آلو..

لا رد..

- آلو..

صمت تام..

كان مارك يراقب كل ذلك. فهم ما فهم، وعلق:

- حذرونى من نظام التليفونات فى مصر بروفيسور..

تملكنى الإصرار..

- آلو..

سمعت أنفاس تسللت عبر السماعة، ثم انقطع الاتصال. أيقنت أنها معاكسة حسبما قدر نعمان، ممن..؟ لسنا على صلة بأحد بعد، ومارك لم يعط رقم التليفون لمعارفــه القليلين لأنه لا يعرفه، فمن..؟ من يعاكسنا، ليلا وأول النهار؟ وتذكرت فجــأة أنــى كتبت رقم التليفون للصياد العجوز أمس.. لا يعقل، لماذا لا يتكلم وقد ذكر أنه محتاج لخدمة منى..؟ غير معقول..

صــرفت الأمــر عن ذهنى بالانشغال فى سؤال مارك عن موعد انتقاله إلى ســكنه الجديد. قال إنهم ينظفون الشقة قبل وصوله، ورجح أن ينتقل إليها مساء اليوم أو فى الغد على أبعد تقدير. وأكمل ارتداء ملابسه وحيانى وخرج..

تركــنى مارك وحيدا بالشقة. لا بأس، هذا أمر تعودته طوال عمرى، ارتاح

إلـــيه، ما يزعجنى حقا، وعلى العكس، أن أبقى بصحبة الآخرين وأسمع ثرثراتهم وأخضـــع لتقلــبات أهوائهم. على طول إقامتى بإنجلترا، ما بين لندن وأكسفورد، تعودت على الإقامة فى الحجرات الفقيرة، حريصا على البقاء وحدى، عزوفا عن المعيشة المختلطة، متحملا شظف العيش كى أحفظ عزلتى، وحين استقرت أحوالى إلى رضاء محدود، عرفت السكن الصغير الأنيق، مع جهازى الراديو والتليفزيون، ولم أشجع أكثر من واحد أو اثنين على اختراق معزلى للضرورة النادرة فى معظم الأحــيان، ولأوقات محددة. وفى الماضى كانت عائشة تأتى - سواء مع أمها أو وحدهـــا - تملأ البيت كلاما، فكنت لا أبادلها الأحاديث معظم الوقت، وأحيانا كنت أكــتفى بــتأمل تقاطيع وجهها التى كانت تسحرنى أثناء كلامها، أو أعقب عليها بعــبارات قصــيرة ساخرة، فتناوشنى قائلة: دمك تقيل، فتضحك أمى سليمة النية الطيبة..

عائشـــة مرة أخرى ودم عليوة لم يجف بعد. ولكن ما شأنها هى، ما صلتها بمـــا وقـــع..؟ لمـــاذا تحاملـــت علـــيها أثناء حديثى مع نعمان حين جاء وأبلغنى بالجريمة..؟ ما نتيجة استدعاء النيابة لها..؟ لماذا لم أسأل نعمان وكنت أكلمه منذ دقـــائق، لكـــن هل كان جائزاً أن أسأله..؟ أمَا كان ينبغى ألا أتسرع بالاعتذار عن دعوتـــه..؟ لقائى به اليوم كان كفيلا بإمدادى بمعلومات قد تزيح عنى التساؤل أو تؤكد ظنونى..

ممتلـــئ بالحيرة والتشوش وعدم القدرة على اتخاذ قرار أشغل به يومى فى أوله، تحركت ومشيت نحو المطبخ لأعد لنفسى كوب شاى. من الأمور التى تحمد لـــنعمان - وهى كثيرة - أنى اكتشفت حين أخذنى إلى هذه الشقة أول ما وصلت، أنـــه ملأ المطبخ بكل مستلزمات الحياة اليومية: شاى وبن وسكر وأكثر من نوع من الجبن والزيتون والمربات داخل الثلاجة علاوة على الصابون ولوازم الحمام. أعددت الشاى وتناولت كسرة من الخبز مع قطعة جبن وعدت إلى جلستى بمدخل الشقة، ودق جرس التليفون من جديد..

- آلو..

من جديد، لا أحد يرد..

انتظرت ثوان ولم يرد أحد.أرجعت السماعة وقلت متهكما إن الشقة تسيطر علـيها العفاريت، ورحت أمضغ بقايا كسرة الخبز مع رشفات الشاى. كنت أنوى مواصلة القراءة، لكن رأسى ظل مشغولا ومشوشا، وألحت على رغبة متسلطة فى الخروج.أخيرا قمت إلى الحمام، اغتسلت وبدلت ملابسى، ونزلت..

فـى الشـارع وجدت الطقس قد تبدل، ذهبت الغيوم وحلت محلها سحابات متراكضة فى السماء تسمح لأشعة شمس واهنة بأن تغطى الشارع والبنايات على فـترات متقطعة. مشيت قليلا بحذاء البحر حتى توقفت قريبا منى سيارة تاكسى، رأيتها تنزل ركابها بسيدى جابر، فاندفعت نحوها، وقلت للسائق:

- بحـرى..

ابتسم نعمان حين رآنى، وقال:

- معاكسات التليفون طفشتك من البيت يا دكتور..؟

سألته بدهشة:

- كيف عرفت..؟

قال وهو يجلسنى إلى جواره فى الدكان المزدحم:

- أنت مش قلت لى الصبح..؟

قلت:

- قلـت لـك عـن مكالمة الليل. ما لم أقله إن التليفون دق مرتين بعد أن كلمتك..

أبدى دهشته واستنكاره، وقال:

- الناس فى الرمل فايقين قوى..

فوجدت نفسى أرد عليه بلا تفكير:

- وكيف عرفت أن المكالمات آتية من الرمل..؟

احتار ولم يجد إجابة. وقلت بعد لحظة صمت، أيضا بلا تفكير:

- يبدو أنى أخطأت بالمجىء.. أفكر فى العودة فى أقرب وقت..

فتعالى استنكاره ورد:

- معقول يا دكتور شوية عيال فاضيين يطفشوك من البلد..؟

بدلا من أن أرد على نعمان تساءلت: لماذا قلت لـــه ما قلت، هل هى رغبة نبتـــت منذ اللحظة التى وصلت فيها إلى أرض بلدى، وظلت كامنة فى نفسى حتى أســـقطها الحديـــث؟ هل بلغت من الخواء والتبلد حتى لم يعد شىء فى بلدى وفى حـــياة الـــناس الذيـــن انتميت إليهم يوما، يستثيرنى ويشدنى إليهم..؟ مرة أخرى تذكـــرت قـــول هنرى ستيوارت: الأرض والناس. فغلبنى السأم، وقلت لنفسى: لا أرض ولا ناس. المسألة بإيجاز: أنى منقطع الجذور..

أخرجـــنى نعمـــان من الاستمرار فى خواطرى الموجعة، قال وعلى وجهه ابتسامة مصحوبة بشىء من المكر البرىء:

- صاحبتك. النيابة ما لقيتش عندها حاجة..

اهتززت وقلت كالمنتفض:

- صاحبتى..؟ من تقصد..؟

قال ببطء:

- الحاجَة.. عائشة..

كنت قد نسيت ما أسر به إلىّ ساعة جنازة عليوة، لم يشغل رأسى وتلاشى مـــن ذاكرتى. بالرغم من تسلط شبح عائشة طوال الأيام القلائل التى قضيتها هنا. مع ذلك اشتعل اهتمامى. وتساءلت كالمستنكر:

- ما لقوش عندها حاجة..؟

قال نعمان:

- سمعت أن النيابة سألتها عن إيهاب والريس عليوة، فقالت إن ايهاب شاب متهور زى كتير من الشبان، وعليوة كان عصبى وأهانه وضربه قدام الناس فعطفت عليه لأنه ابن جارها وشريكها..

تنهدت أبغى إنهاء الحديث، وقلت:

- لا شىء يبرر القتل يا نعمان..

فنطق قائلا:

- معك حق يا دكتور لكن الحقيقة هى كمان عندها حق تكره عليوة.. عليوة نفسه عمره ما حبها.. كان بيزعل كتير عشان عمه زمان، أصل عيشه عايرت الريس حمودة كتير بمراته اللى كانت قبلها، كانت بتقول له كل ما يجيب سيرتها بالخير: عجوزة كأن الدنيا ما جبيتش غيرها. وحمودة كان بيزعل قوى منه ويشتكى لابن أخوه، أصله كان شايل فى نفسه حب كبير قوى لمراته الأولانية. هى اللى حمته بفلوسها وحبها من أول ما اجوزها لحد ما ماتت.. وعليوة ما نساش أبدا زعل عمه، وكان بيظن أن عيشة هى سبب موته..

استمعت إلى نعمان فى ثرثرته، ولزمت الصمت شاردا. لكنى فجأة، خطر لى، وبدون سبب معلوم الدوافع، أن أساله. قلت بلا مقدمة:

- نعمان.. هل تعرف أصول عائلة حمودة..؟

أجاب على الفور:

- الريس حمودة الله يرحمه صياد بن صياد وجدّه كمان كان صياد.. بيقولوا إن أصلهم كانوا بدو ساكنين هنا من زمان واشتغلوا مع العثمانلية لما جم مصر، وانحدر بيهم الحال.. عمك الله يرحمه قال لى الكلام ده وأنا صغير..

وتوقف وسألنى بدوره:

- بتسأل ليه يا دكتور..؟

وأجبت:

- لا أدرى، صدقنى.. مجرد خاطر خطر لى..

ضحك، وقال:

- بحرى دى تلاقى فيها كل الناس.. أمم متحدة يعنى..

ثقلت علىَ جلستى إلى جوار نعمان فى الدكان الممتلئ بالبضائع، فقمت أبغى الانصراف..

- على فين يا دكتور..؟

قالها نعمان متسائلا ومحتجا. قلت وأنا أعمد إلى الكذب:

- أواصل التجوال بالمدينة يا نعمان قبل أن تمطر كما أنذرت بالأمس..

ألح نعمان..

- لسه بدرى على الشتا يا دكتور..

وألح أكثر مجددا الدعوة إلى الغذاء. اعتذرت أكثر من مرة، ومشيت. فكرت أن أذهب إلى المقهى الذى صرت واحداً من رواده، ولكنى عدلت. خفت أن يطاردنى الصياد العجوز بحكاياته، وخشيت كذلك من توقع أن يلفت تكرار تواجدى فى المكان أنظار أناس قد يبقى من بينهم أحد يتذكرنى. وقادتنى خطاى المتخبطة، ومن جديد، إلى محطة الرمل..

فى محطة الرمل وجدتنى أمام ثلاثة اختيارات: العودة إلى المسكن، تناول الغداء، وارتياد إحدى دور السينما. لم أفكر كثيرا، جمعت بين اختيارين من الثلاثة، قلت أتناول غدائى، بعده أمر على دور العرض وأنتقى فيلما جديدا أشاهده، وبهذا أصرف وقتا لست فى حاجة إليه..

بعد أن تناولت الغداء بأحد المطاعم على كورنيش البحر، وبدأت أرشف القهوة، لاحظت آدميا يتطلع إلى ناحيتى من حين إلى حين. كان شخصا ضخم

الجـثة، يرتدى جلبابا أبيض، ويغطى رأسه بغترة وعقال.. استنتجت أنه من أبناء الدول العربية فى زيارة سياحية، وتأكدت أكثر حين شاهدته ينقل عينيه بين المارة من السيدات والفتيات. قلت الموسم السياحى انقضى، فما الذى يبقيه فى مصر..؟ ولم أكد أنتهى من سؤالى لنفسى، حتى شاهدته يترك مائدته ويتجه نحوى. جلس قبالى بدون دعوة وهو يلقى السلام، وقال:

- والله يا شيخ مصر تاج العرب..

لم أرد عليه، ولم أتجاوب معه. ورغم ذلك مضى فى حديث لا يهمنى: تحدث عن زيارته الأولى لمصر وللإسكندرية والأماكن التى تعرف عليها، والناس الذين اصطحبوه، وأنهى الكلام بتكرار العبارة:

- والله يا شيخ مصر تاج العرب..

احتسيت آخر رشفة من قهوتى، وقمت منسلخا من رفقته المفروضة على، وقلت:

- وهل مصر أصلا من العرب يا شيخ..؟

ولم أنتظر لأسمع رده.

(١٦)

وجدت مفاجأة فى انتظارى حين رجعت إلى سكنى، لم تكن مفاجأة كاملة، إذ كـان مارك قد مهد لها فى الليلة السابقة ونبهنى إلى توقعها، لكنى وسط ضياعى نسـيتها، فتعاظم إحساسى بالفقد بمجرد أن قرأت رسالته التى تركها معلقة على ظهر باب الشقة من الداخل، فبوغت بها وأنا أغلقه..

" أستاذى العزيز..

انتقلـت الـيوم إلـى شقتى الخاصة. حضرت لنقل عفشى بصحبة عائشة وبعـض الزملاء، انتظرت عودتك على مدى ساعة تقريبا، ولما تأخرت رحلت مع زملائى. من المؤكد أننا سنبقى على اتصال حتى موعد عودتك إلى إنجلترا، سواء بالمقابلـة أو بالاتصال التليفونى. وبالنيابة عن نفسى وعن والدى، أرجو أن تقبل منا الشكر والتقدير..".

كانـت الرسالة مكتوبة باللغة الإنجليزية، وقد ألحقها بجملة مداعبة أوردها بعـد التوقيع، الجملة تقول: الرسالة القادمة سوف أرسلها لك من هنا إلى إنجلترا باللغـة العربـية إن شـاء الله. أضـاف "إنشـاء الله" بالعربية وبحروف سليمة وواضحة..

أبهجتـنى مداعـبة مـارك فابتسمت برغمى، لكن وخزة حزن انغرست فى صـدرى وراحت تتسع، وقلت: كان ينبغى أن أعد نفسى حين أبلغنى بالأمس، ثم تراجعت متسائلا: ما هذا التناقض.. أبغى الحرص على عزلتى، والآن أحزن حين تتحقق. هل هذا عائد إلى ألفة لم أجدها فى وطنى منذ أن عدت، وهل وجدتها من قبل وأنا بين ربوعه زمن الصبا والشباب..؟ أحرص على عزلتى وأضيق بها، هل هى حالة مرضية..؟ أم هى الغربة المفروضة علىّ قدرا..؟ ومارك شاب على أى

حـــال، تسيره نزعات الشباب، وأكثر من هذا أنه وجد سريعا رفقة وصحبة، فماذا كـــان له عندى غير تعليقات الشيوخ الجهمة وهزئهم النابع مما يسمونه حكمة.. الحكمـــة هـــى مـــا تكتشفه الذات خلال تجربة وزمن. ما أشد حماقتى وما أتعس حزنى..

كانت "جوان" تكرر كثيرا أمامى قولها: أنت رجل شرقى، وأنا أقبلك على هذا الـــنحو، ولكـــنى بدأت أراك كشرقى مهتز. سألتها: كيف..؟ قالت: أنت جئت إلينا، وتعلمـــت منا، ونجحت، ولكنك ترفض أن تعيش مثلنا. قلت لها: محتمل أن يكون تعلمى ناقصا، ونجاحى مجرد نجاح شكلى. قالت: محتمل، ولكنى على يقين من أن العوائق فى داخلك. ولم نلتق كثيرا بعد ذلك، حتى تركت هى أكسفورد، واختفت.. ربما يأسا منى..

كانـــت "جـــوان" تـــدرس الدكتوراه فى أكسفورد، وكانت تعشق كل ما هو شرقى، وقد يكون هذا هو دافعها إلى التقرب منى حين عرفت أنى مصرى. تعارفنا عـــبر مقاعد الدرس، وتبادلنا الصحبة. قالت فى المبتدأ: تبدو حزينا.. فرويت لها الكثـــير عـــن حياتى وبلدى. حين أتيت على ذكرى حكايتى مع عائشة، وأنهيتها، عقبـــت بقـــول لـــم أستوعبه جيدا، قالت: فتاة متخبطة، ولم تجد من يمد إليها يد المساعدة، ربما كان مثل ذلك مستحيلا فى مجتمعكم..

واستمرت صحبتنا، حتى سمعتها ذات يوم تسألنى: لماذا لا تأخذنى معك إلى بيـــتك..؟ وذهبت بها بعد تلكك سخيف، وفى بيتى أخذت منى وأعطتنى كل شىء، بعشـــق حقيقى واحترام نادر. مؤكد أنى أحببتها، كانت مطلقة.. نعتت طليقها أكثر من مرة بالتعسف، كان ضابطا بالجيش البريطانى، وكانت هى كاتبة تكتب قصصا قصـــيرة وتنشـــرها، وتحلـــم باستكمال دراستها الأكاديمية، ولذلك لم يتفقا. بدأت خلافـــاتى معها لما حدثتنى عن الزواج، كانت وجهة نظرى أن أستقر عمليا أولا، وردت هـــى أن ذلـــك لـــيس عائقا. لما استمر الجدال، قالت جملتها التى كررتها مرات: أنت رجل شرقى، وأنا أقبلك على هذا النحو، لكن..

رنين جرس التليفون يخترق أذنى فانتفضت. كنت قد جلست فور أن دخلت مسكنى، وبيدى الورقة التى تركها مارك لا تزال. أمسكت بسماعة التليفون لأرد. صوت غليظ يسأل:

- ممكن أكلم عاشور؟

تساءلت من غيم فى رأسى:

- عاشور من..؟

فأجاب الصوت الغليظ:

- عاشور بن الحاج حسونة..

- النمرة غلط..

ووضعت السماعة يكتنفنى غضب عارم.. ما الذى حدث فى بيوت مصر أكثر مما حدث من قبل..؟ هذا وضع لا يحتمل. ومارك رحل، ولا أحد لى هنا سوى جدران صماء ولا عمل، فلماذا أبقى..؟

برقت الفكرة فى رأسى وأشعت، مثل حجر سقط فوق مسطح ماء راكد فغوَره، وراحت دائرة الغور تتسع. أرسلت بصرى على خط مستقيم وسددت النظر، حركت عينى إلى اليمين وإلى اليسار: جدران وأثاث، وفى الغرفة المجاورة حقائبى وملابسى وكتب ملقاة بإهمال، نادتنى مرة واحدة منذ يومين فاستجبت ولم ألبث أن نسيتها. هذا ليس سكنى ولا بيئتى.. هناك، مفروشات البيت تزاحم بعضها، سرير نومى تحيط به المقاعد وأكداس الكتب وأجهزة التليفون والراديو والتليفزيون ومشجب الملابس وفناجين القهوة المبعثرة فى أرجاء الحجرة، فوق مائدة الطعام أكوام ومطبوعات وكتب مقلوبة على صفحات توقفت عن القراءة عندها، تزاحمها أطباق وأكواب.. و"ليز" العجوز تبرطم كلما أتت لتنظف البيت وتصرخ فى وجهى حين ترانى بإنجليزيتها الريفية.. هناك إيقاع حياة، وهنا فراغ وموات وجذور اجتثت. فلماذا أبقى..؟

أمسكت بالتليفون، ورفعت السماعة، وأدرت القرص..

- كيف حالك يا نعمان..

- أهلا يا دكتور..

- أنا ماشى يا نعمان..

أتت عباراته، مستنكرة، حائرة، متعثرة..

- إزاى.. إمتى.. وليه..؟

اقتصرت على قول: تعبان. فأسرع يحثنى على المجىء إليه. قلت غدا فى الصباح أنزل لتأكيد حجز الطائرة وأمر عليه، فألح أن أمر عليه قبل الحجز، ونزلت على رأيه بعد حوار طويل سخيف.. غير أنى حددت اللقاء بالمقهى القريب منه، فوافق بلا نقاش أو معارضة..

ذهبت إلى المطبخ وأعددت فنجان قهوة، حملته بيد غير متزنة وعدت. قربت المقعد من الشرفة المطلة على البحر، وجلست. صمت تخترقه أصوات عدو السيارات كالفحيح، وظلام أخذ فى الانتشار.. أى حماقة، يبدو رجوعى إلى البلد كالمؤامرة التى استدرجت إليها بواسطة قوى غيبية، وشعور كالح يجثم على صدرى: إنى لم أشارك أبدا فى اتخاذ قراراتى المصيرية. اغتراب فى الوطن، وغربة خارجه، مثل نبات نادر لم يجد أرضا تغذيه ولا شمسا ولا هواء.. مصيره الذبول فالجفاف فالموت، دون أن ينفع أحدا أو حتى يزهو بتفرده. تعاستى كتبت منذ اللحظة الأولى التى تفتحت فيها عيناى على عالم يرفضنى وأشاركه الرفض..

قمت، لذعتنى هبة ريح باردة، فقمت وأغلقت الشرفة، وانتقلت إلى غرفة نومى. بدلت ملابسى، وغرقت فى صفحات رحلة ابن فطومة لنجيب محفوظ التى لم أكن قد أكملتها، حتى أنهيتها. جرى الوقت بفضل تأملات محفوظ، وضعت الكتاب جانبا، وشردت: متى أصل لدار الجبل، وكيف سأصل..؟ ما أشد شقاء الإنسان بالأسئلة التى تعذبه ولا يجد لها إجابة قاطعة..

نمــت. نمت عميقا، مثل هارب تفتحت أمامه مسارب الاختفاء. واستيقظت مــتأخرا عن موعد الاستيقاظ الذى تعودته. أيقظنى رنين جرس التليفون فتفززت على الرنين المتتـــابع..

- صباح الخير بروفيسور..

كان مارك. أفقت، من النوم والفجعة..

- صباح الخير.. مارك..؟

- بالتأكيد.. أتكلم كى أطمئن وأعتذر.. نمت جيدا بروفيسور..؟

- كيف عرفت رقم التليفون..؟

- أنت أمليته على ونحن نتكلم.. نسيت..؟

- تعال يا مارك.. أفتقدتك..

- ليس اليوم بروفيسور.. آسف..

- ما الذى يمنعك..؟

- عندى دعوة على الغذاء مع عائشة.. لقاء تعارف مع أبيها وأمها..

ابتسمت. رُد إلىّ مرحى..

- لا تضيع وقتك يا مارك..

قال بسعادة ظاهرة:

- عائشة فتاة رائعة بروفيسور..

- تهانىّ..

أرجعت سماعة التليفون حسير النفس، وخطوت متجها نحو الحمام، فتعالت رنات التليفون من جديد. هل نسى مارك أمرا لم يقله لى أثناء حديثه، أم لعله أراد أن يضيف شيئا..؟

ارتـــددت إلـــى موضع التليفون، ورفعت السماعة فانقطع الرنين.. لا أحد. تصاعد الغضب فى رأسى، كررت النداء مرتين. أخيرا سمعت: صوت نسائى رقيق تخالطه بحة..

- أنا..

- من حضرتك..؟

- أنا..

- قلت من حضرتك..

- نسوان الإنجليز أنسوك أهلك..

يا ربى. هى. هذا الصوت لا أخطئه، كما لم أخطئ ذكراها. عائشة تبعث من البئر العميق، حية هذه المرة، بصوتها الذى عمرى ما نسيته، الشىء الوحيد الذى أضيف إليه هو هذه البحة المرضية. هل بسبب انتقاله عبر أسلاك الأثير، أم لعله وهمى واختلاط أفكارى. إذن فهى التى كانت وراء لغز المكالمات التليفونية.. من أين أتت برقم التليفون..؟ بل كيف عرفت أساسا بوجودى هنا..؟

وقبل أن ألفظ كلمة، حرفاً، سمعت تكة قطع الاتصال من الطرف الآخر.

(١٧)

أرجعت سماعة التليفون إلى موضعها بعد أن انتشر الأزيز فى سمعى، حتى كـــدت أوقـــن أنى سأفقد السمع.. الأزيز تصاعد من أذنى إلى رأسى. ماذا يحدث لـــى..؟ أنـــا مراقب من البشر، وكنت أظنها مسألة قدرية. عائشة تترصدنى، منذ مـــتى، وكيف..؟ وهل بدورها لم تفقد الذاكرة طوال عشرين عاما..؟ ارتميت فوق أحـــد المقاعد وتوقف سعيى نحو الحمام. قد تعاود الاتصال، ولكن من يجزم أنها هـــى.. ألا يحـــتمل أنى على خطأ..؟ أصوات الناس تتشابه حتى تتطابق. لكن لا. لـــيس تشـــابها، إنها هى.. قالت نسوان الإنجليز، فهى تعرف وتوقن وتتعمد. هى هـــى، وأنا الساذج الأبله الذى تحاك له أضأل المؤامرات فلا يعرف كيف يتجنبها. أبْلَـــهٌ أم نظـــيف واضـــح..؟ الأمر سيان، فى الزمان والمكان سيان، هذا ما حدث للأمـــير موشكين فى خبرة وخيال دستويفسكى، ولم يكن الأمير موشكين أبْلهاً كما زعـــم من حوله.. كان يعرف، فقط لم يكن يرضى أن يستغل معرفته فى المسالك الدنيئة التى تعود عليها البشر..

بقيت جالسا لعلها تتصل، أو لعل الخط انقطع لأسباب فنية وستعاود الاتصال حين تزول تلك الأسباب.. كل ذلك الزمن.. ماذا تريد عائشة..؟

تخليت أخيرا عن مجلسى بجوار التليفون واتجهت نحو الحمام. قلت ساخرا: الأمـــير موشكين لا يزال محافظا على وصمه بصفة البلاهة. وانتهيت من أمورى الصغيرة، وغادرت الشقة.. لم يرن جرس التليفون..

نعمـــان، بعد أن تقابلنا بالمقهى حسب الموعد، وبادرته بإخباره عن مكالمة أول الصباح، هش وقال:

– لو استنتاجك صحيح.. عرفت نمرة التليفون إزاى..؟

أيدتــه فــى دهشته، لكنى فجأة وبدون ترتيب عقلى مسبق، تذكرت الصياد العجــوز فيما يشبه الإلهام. حكيت لنعمان حكايته معى، وحاجته إلىّ حسبما زعم، التى بمقتضاها كتبت له رقم تليفونى، ولم يتصل من ساعتها.. شاهدت نعمان على وقع كلماتى يجحظ وهو ينظر فى وجهى، وسمعته يسألنى دون أن أفهم:

- عويضة..؟

ســألته بــدورى: من عويضة، ومن غير أن يجيبنى استفسر هو عن هيئة الصــياد العجــوز طالبا منى أن أصفه.. طوله، عرضه، صوته، فلما اجتهدت فى التذكر، هز رأسه مرات، وابتسم قائلا:

- هو بعينه.. عويضة، ما حدش غيره.. انكشف اللغز يا دكتور..

عويضــة، تــبعا لاسترسال نعمان فى الحديث، بحار قديم فعلا، سافر كثيرا حــتى اســتقر فى عمل باليونان، وهناك وقعت لــه حادثة مؤلمة.. أصيب أثناء عاصفة بالبحر بخبطة فى رأسه يقال إنها أثرت على قواه العقلية، ولم يتلق علاجا كافــيا، ورفضــت الشــركة الملاحية صرف تعويض له، فعاد إلى مصر فى حالة ســيئة. وقــد تــردد مرات على مكتب عائشة يطلب مساعدتها فى الحصول على عمــل، فهاودتــه وعطفــت عليه، ولم يكن بإمكانها غير أن تستخدمه فى تأدية خدمــات صــغيرة حسب حاجتها، مقابل هبات مالية بين حين وحين، أو قروض تافهة يطلبها منها تعتبرها هى من قبيل الحسنة. وعموما، ومنذ عودته، وبالنظر إلى تصرفاته غير العادية، فقد اعتبره رجال الأنفوشى معتوها، وعاملوه على هذا الأساس..

كُشــف اللغز إذن حسب كلام نعمان. المعتوه - بالرغم من مرضه - نجح فــى الاحتــيال علىّ، معتوه يحتال على أبله.. كوميديا. ولكن من قال إنه فعل..؟ الأرجح أنها هى التى رسمت له الخطة. عائشة التى عرفتها مخلوقة ذكية، عاينت ذكاءها بنفسى منذ كانت صبية وفتاة، ذكاؤها ذكاء متوحش، شيطانى، فماذا تريد منى..؟ ماذا تدبر لى..؟

مر ساقى المقهى بنا ونحن نتحدث، ويبدو أنه التقط طرفا من حديثنا وسمع نعمان يذكر اسم عويضة. نظر نحوى ثم وجه كلامه إلى نعمان متمتما:

- عمل إيه ابن المخلول ده مع الأستاذ..؟

أسرع نعمان بطمس موضوع حديثنا، وقال للساقى:

- أبداً. الدكتور كان يسألنى عنه لأنه شك فى تصرفاته لما قابله هنا..

عقب الساقى وهو ينصرف عنا، موجها الكلام إلىّ فى نفس الوقت:

- اقطع لك رجله من هنا يا دكتور إذا حبيت..

وبعد أن اختفى داخل المقهى، قال نعمان بصوت خفيض:

- هوه ده بقى يا دكتور اللى مخليك عاوز تسيبنا قبل ما تكمل أسبوع عندنا..؟

قلت بشرود:

- المسألة أعقد من هذا يا نعمان..

وكنت مشغولا ما أزال، بالتفكير بأمر عائشة.. ماذا تريد منى بعد ذلك الزمن الطويل الذى انقضى، إلى الدرجة التى تطلق ورائى العسس..؟

عاد نعمان إلى فتح موضوع حجز تذكرة الرجوع إلى إنجلترا، ملحاً فى محاولة صرفى عن تنفيذ قرارى، لكنى لم أستجب لمحاولته، أجبته بحسم لا أدرى من أين أتانى:

- قبل مكالمة الصباح التى كلمتك عنها يا نعمان، كان من الممكن أن أستجيب لنيتك الطيبة..

ألقى آخر ما فى جعبته. قال وكأنه يفجر قنبلة:

- حتى لو عرفت أن عيشة مريضة..؟

حملقت فى وجهه، أفلح فى شد اهتمامى..

- ماذا تقصد يا نعمان..؟ ما معنى أنها مريضة..؟

- أصـــيبت بجلطة فى المخ قبل وصولك بشهور.. وتعالجت.. لكن الجلطة سابت عاهة مستديمة.. بتعرج وهى ماشية.. بقى حالها صعب خالص..

فكرت، وقلت متجاوزا أثر تفكيرى وأنا أكبت انفعالا يكاد يفتتنى مزقا:

- وماذا بيدى أن أفعله لها..؟ وما صلة ذلك ببقائى أو رحيلى..؟

أنـــا أقصـــد أن تنســـاها يا دكتور.. إنساها واستمتع بحياتك فى الأيام اللى بتقضيها وسط أهلك وبلدك اللى غبت عنها كتيـــر..

تملكـــنى الغضب من قول نعمان، لكنى أمسكت غضبى، تحكمت فى إرادتى، ورسمت فوق وجهى ابتسامة يخنقها ألم متشعب صادر من أعماق متوجعة. قلت له:

- من قال يا نعمان إنى لم أنسها..؟ حكاية التليفونات من أولها إلى آخرها تقـــول إنهـــا هى التى لم تنسنى، المشكلة أنى أشك فى احتمال أن تكون تدبر لى شيئاً..

وهمســـت: كالذى دبرته لعليوة. لم يسمعنى، فواصلت كلامى لنفسى: عليوة أســـاء إلـــيها يومـــاً بحسن نية، وأنا رفضتها من قبل، وقبل ساعات من رحيلى، والشـــيئان شبيهان، صنوان فى الإهانة، وأعرف أن المرأة لا تغفر أبداً لمن يهين أنوثتها، على الأقل لا تنسى.. وبصفة خاصة: عائشة المعتزة بأنوثتها..

قال نعمان:

- عيشـــة انكسرت يا دكتور.. أنت مش عارف، أنا ما رضتش أقول لك.. دى تعبت قوى، مش بسبب الجلطة اللى جتها.. يمكن بسبب موت أبوها وقبله جوزها. دى بتخرف يا دكتور.. عارف المسجد ده..

وأشـــار إلـــى المســـجد الواقع على حافة الشاطئ، خلف ميناء الصيادين، وأكمل:

- هـــى بنـــته بفلوسها، وتعتبره كأنه بيتها أو مكتبها، بانيه جواره أوضه ملـــياها كتـــب ومصاحف، ومخصصة يوم فى الأسبوع تجتمع بالصيادين بحجـــة حـــل مشاكلهم.. تقعد تحكى لهم حكايات عن الريس حمودة الله يـــرحمه.. وسمعت مرة أنها حكت للناس أن الريس حمودة سابها بالليل ونـــزل خد البلانس بتاع أبوها وطلع بيه لوحده البحر، راح لحد قبرص ورجع أول الصبح ومعاه سمك كتير.. أكيد كان بيحلم وحكى لها الحكاية فحولـــتها هـــى لحقيقة، وفضلت تحكيها للناس، والناس صدقوها لأنهم مساكين وجهله.. دى بتخرف يا دكتور.. ويمكن ده اللى جاب لها جلطة المخ..

كـــان نعمان يحكى بانفعال مواز لاحتدام مشاعرى وأنا أستمع إليه صامتاً.. هـــل جنت عائشة، ما مدى احتمال أن أكون أنا واحدا من أسباب جنونها..؟ وما مقدار خطورة جنونها..؟

قلت لنعمان بعد أن انتهى:

- تحدثـــنا عـــن عائشة أكثر من مرة يا نعمان.. لماذا لم تخبرنى بحالتها الصحية..؟

أجاب سريعاً:

- وتهمك فى إيه يا دكتور.. وأنت ناقص وجع دماغ..؟

غمغمت:

- ومع ذلك، وجع الدماغ حصل..

وللحظة، شعرت أنى سأتعرى أمام نعمان، أو لعلى تعريت بالفعل أمامه.

وبدون انتباه مسبق ولا قصد، تطلعت إلى السماء فوقنا، فرأيت الغيوم تعود

وتتجمع، هذا خريف يستسلم لمقدمات الشتاء، واضح أنه سيخسر معاركه ويسلم دفئه للبرودة والعواصف. وجدتها فرصة للاعتذار والانصراف.

قمـــت متباطـــئاً، قلت: يبدو أنها ستمطر.. لابد أن أكسب وقتى.. ينبغى أن ألحق بمكتب الحجز بمحطة الرمل قبل إغلاقه.

(١٨)

صـــافحني نعمان وعلى وجهه علامات أسف مبعثه ود أعرفه، ولم ينس أن يوصـــيني بشدة بضرورة أن نتلاقى قبل سفري. وفي مكتب الحجز بمحطة الرمل عثرت على مقعد بطائرة لندن بعد يومين.. أنهيت كل الإجراءات، وتناولت غدائي، ورجعت إلى السكن.

فـــي طـــريقي إلـــى الســـكن، كنت ممتلئاً بمشاعر متضاربة: حزن وحسرة وتوجس. مرة أخرى: فرق بين أن تتخذ قراراً بعد تفكير وبين أن تنفذه، أن تعيش دقـــائق واقعـــه.. أنا الآن في طريقي لاستئناف منفاي، ألم يكن السجن أهون..؟ أرجـــع إلـــى مـــا قـــبل عشرين عاماً مضت.. زملاء الزنزانة وشغبهم وجنونهم ونـــزواتهم المعـــبأة ببذور خطر وشر، شاويش العنبر المرتشي فظ اللسان معظم الوقت. المتبسط الحكيم في أوقات أخرى نادرة، وهو يوزع علينا الشاي خلسة من طاقة ضيقة بباب الزنزانة الصلد، وزيارات نعمان لي حاملاً ربطة الكتب والأطعمة كـــزيارة عيد. أو هكذا كنت أترقب زيارته وأعايشها. لهفتي على ورقة تأتيني من عائشـــة فـــلا تأتي. ومع ذلك أظل آمل ولا أيأس. ما أجمل أن تعيش بين أهلك، مهمـــا قسوا عليك وأنكروك واغتربت بينهم. لكن رجفة تجتاحني وتهزني بمجرد أن أفـــتح باب الشقة وأدفعه بيدي، فيهب علي تيار هواء قوي.. نسيت أن أغلق الشرفة حين غادرت الشقة أول النهار متعجلاً. بعد مكالمة عائشة التي أربكتني.. عائشة. وتصاعد التوجس مختلطاً بمشاعر الحزن والحسرة.. هل تعاود الاتصال، ومـــا هي لعبتها الجديدة بعد انقضاء زمن طويل ومتغيرات مؤثرة، أهمها وأشدها خطورة مرضها الذي أسهب في شرحه نعمان..؟

لـــم أبدل ملابسي، وجلست بالشرفة، أراقب البحر الذي امتدت الغيوم فوقه حـــتى الأفـــق، مشوشـــاً موزع النفس. امتدت يدي لا شعورياً إلى جيب سترتي،

ووجدتـــنى أستخرج تذكرة الطائرة وأقلب فى صفحاتها بعينين لا تقرأ. هب هواء مفاجـئ علـىّ وأنـا مستقر فى جلستى لم أعبأ به، غير أنى انتبهت حين تساقط الـرذاذ وتـناثر فـوق رأسى ومن حولى. إسكندرية.. ما أجمل حزنك وغضبك. شـاهدت السـيارات من تحتى تمرق فوق طريق الكورنيش وتزيد من سرعتها، فتوقعـت معهـا المطر. ومع ازدياد سرعة السيارات صفعت وجهى سرعة الريح الـتى أخذت تعلو شيئاً فشيئاً. هاهما طفولتى وصباى يرتدان. الإسكندرية، الكون كلـه.. أدغمـت الدفء بالبرد، النهار بالليل، الضياء بالظلام، الصخب بالهدوء. وشعرت بغتة بأصابعى تضغط على تذكرة الطائرة بشدة، تكاد تطويها طى ورقة لا قيمة لها، تمهيداً لرميها والتخلص منها. لطمتنى هبة ريح قوية فتراجعت، أعدت تذكـرة الطائرة إلى جيب سترتى، وأغلقت النافذة، وذهبت إلى غرفة النوم وبدأت أبدل ملابسى. لم يكن الطقس باردا رغم العاصفة التى انفجرت فى الخارج، ورغم الغـروب الذى أخذ يزحف بكثافة، لما أكملت ارتداء ملابسى البيتية، اتخذت قراراً حاسماً: أن أفرغ لاستكمال مطالعة الكتب التى أهملتها، ووجدت تحت نظرى اثنين منها: "الحزب الهاشمى" وكتاب أنور عبد الملك. وبدأت بأولهما..

مـرت دقـائق لم يتيسر لى حسابها، انتبهت بعدها إلى صوت المطر وهو يهطـل فى الخارج.. عنيفاً غزيراً، كأنه سيل. لم أغادر موقعى، وواصلت القراءة بنهم.

حيـن أتيت على الصفحة الأخيرة من الكتاب، كان الليل قد انتصف، والمطر لـم يـتوقف. أصـوات المياه وهى تتدفق من مزاريب المبانى فى إيقاع متتالى، والوشـيش الصـادر عن عدو السيارات وهى تخوض وسطها، أنبأنى باستمرار المطر، لكن أياً من ذلك لم يعكر استغراقى فى القراءة.. كتاب صغير الحجم ضخم الأهمـية، يضمر جرأة تتواصل مع جرأة طه حسين التى ظن الناس أنها اندثرت مـنذ عشرات السنوات. قلت لنفسى بعد أن انتهيت من الكتاب: لا أحد سوف يقدر علـى عقـل الذهـن البشرى ومنعه من البحث والتأمل وإطلاق طاقته. ووجدت أصـابعى تفر الصفحات حتى تعود إلى أولها، وقرأت من جديد إهداء سيد القمنى:

"إلـى ابنـتى".. فقلـت كرد فعل وتعقيب: أى إلى المستقبل، ومحال أن يملك أحد مصـادرة المستقبل، وتذكرت محنتى، شملنى شعور جارف بالقناعة والرضا.. كل ما جرى لى قد جرى، لدسيسة حكمة لا أعرفها.. وفوق إرادتى وإرادة البشر كلهم إرادة أكـبر. وقلت للقاضى الذى سجننى: هذا جوهر الإسلام الذى حكمت باسمه، بشريعة مغالطة له متعسفة فى تفسيره، يا غبى. ونمت، نمت من سكرة القناعة، ورضا الإيمان، وعلى إيقاع سمفونية المطر الجياشة الشجية..

لكـن عائشة بعد حين لم تتركنى أهنأ بنومى.. جاءت ومسحت رأسى بكفها كما فعلت قبلاً أكثر من مرة، فاتنة ساحرة وأنا أفتح عينى وأراها، عائشة الشابة النضرة التى تضج بالحيوية والحسن. لما انتفضت ورأيتها، خاطبتنى بحنو ودلال قائلة:

– تهرب منى..؟

أنكرت حالى واستنكرت..

– أنا؟؟ ما رغبت فى مخلوق غيرك..

قالت:

– إذن، فلم سافرت وتركتنى..؟

قلت:

– لأن السبل تباعدت بيننا.. أنت والوطن.. بحثت عن النسيان فى البين..

قالت:

– هل وجدته..؟

قلت:

– لأول مرة أعترف، ولا أخدع نفسى أو أخاتل.. لا..

قالت مبتهجة:

- إذن تعال نستمتع بما بقى..

قلت:

- محال يا عائشة، محال..

قالت وقد ارتسم على وجهها غيظ وحشى:

- لماذا..؟

قلت:

- لأن السبل تعقدت بعد أن تباعدت، وامتلأت الطرق بالمثبطات والوعورة..

فإذا بها تهجم على وتنشب أظافرها فى عنقى، وهى تقول:

- فاكر لما ضربتك زمان. كنت غلطانه. كان يجب بدلاً من ضربك أن أقتلك..

وأطلقتنى، وجلست تبكى، وأرسلت تقول:

- كان سيد الرجال، لا أحد حتى اليوم يستطيع أن يقول فى حقه كلمة. أنا وحدى فحسب.. أنا وحدى فحسب..

ظلت ترددها مرات، وكانت تصل إلى سمعى كالصدى، ثم بدأت تهدأ..

- بقدر ما تهيبت الزيجة وأنكرتها فى نفسى، بقدر ما امتلأت بها فخراً وكبرياء.. زوجة سيد الرجال، أنا نفسى شككت أنى أستحق..

ثم حكت..

- ليلة زفافنا، لما انفض الفرح، وذهب المهنئون، وصرنا وحدنا، أخذنى فى حضنه، ثم خلع عنى ملابس العرس. فعل كل ذلك باحترام بالغ. ثم أنامنى على السرير إلى جواره، وهدهدنى بكفيه القويتين الحانيتين، وبقى على هذا الوضع حتى طلع الفجر. قام وصلى، وبعد الصلاة أعددت له إفطاره. أكل وأصر على أن أشاركه، وخرج إلى دكان أبى. واستمر

الحال على هذا دون أن يعرف أحد، ولا أمى نفسها، حتى ماتت على جهلها. لم يسئ معاملتى مرة، لم يغضبنى أبداً، وكان يعاملنى كملكة، حتى حين كنت أنا أستفزة وأستثيره وأغضبه، عمره ما أذانى ولو بكلمة..

وكررت:

- كان يعاملنى كملكة..

ثم عادت إلى اهتياجها وصاحت، وجهها فى وجهى، حتى يكاد الوجهان يتطابقان:

- كنت أريدك أنت.. أهرق طاقتى المحبوسة عليك..

وأكملت وهى تبتعد:

- وها هى استحالت مرضاً وتشوها..

ورأيتها تبتعد، تحك قدميها بالأرض وتظلع بساقيها، فتذكرت مشيتها وهى صغيرة، تلك المشية التى كانت تفتننى وتفتن غيرى من الشباب..

وابتعدت حتى اختفت، ورأيتها قبل أن تختفى تخرج من باب شقتنا ببيتنا القديم.. بيتنا القديم لا يزال موجودا، لم يهدموه بعد.

(١٩)

نـــور الصـــباح يتدفق سخياً، فيغمر حجرة النوم. ماذا حدث بالأمس، أثناء اللـــيل، لا أتذكـــر. غـــيمة قاتمة أطبقت على رأسى وأعتمت الذاكرة. لكن فرحتى بالضوء أنعشتنى، فغادرت مرقدى، ورجعت شيئاً فشيئاً أتخلص من عتمة الذاكرة. أهـــذا صـــباح يعقـــب العاصفة..؟ لكنها الإسكندرية. شاهدت النور الباهر يفترش جـــدران الشقة.. شقة عارية إلا من أثاث بسيط مسطح الخطوط بلا جمال، جدير بمغترب مقتلع الجذور. بهرنى الضياء، ففتحت الشرفة أول ما اقتربت منها، البحر ســـاكن، والســـماء تـــتراكض فوق صفحتها نتف من سحابات بيضاء هاربة.. يا ســـبحان الله، أهـــذا صباح يعقب العاصفة..؟ لكنها الاسكندرية التى أعرفها، مرة أخـــرى. وتطلعت إلى أسفل وإلى اليمين وإلى اليسار.. الطرق من أسفل جفت إلا من دوائر مياه تركزت فى بعض الأركان، تتولى أشعة الشمس تجفيفها بالتدريج، والمـــبانى اغتســـلت.. مـــثل مجموعـــة أوانى خزفية أزيل عنها التراب المتراكم وغســـلت بالماء.. مرة ثالثة، هى الإسكندرية التى أعرفها، مهما عبث بها الزمن أو فســـخها الدهماء. وانتعشت الذاكرة، فمر شريط الليلة التى انصرمت واضحا، منســـاباً، كلحـــن سلس. وطوّف بى فى نفس الوقت تيار هادئ من حزن مستسلم شفيف..

دخلـــت إلـــى الحمام، وبدأت بدورى أغتسل. شعرت بالفرح مذاباً فى المياه المتدفقة فوق رأسى وبدنى.. فرح غامر، شامل، متفجر من نبع قناعة ورضاء.. غـــداً أســـتأنف حياة راضية قدرت علىّ ولى، وأخلص من عذاب ذكريات اليمة لا جـــدوى مـــن استعادتها وترجيعها.. غداً تنتهى الحماقة بلا رجعة وتعود الرصانة والاتزان..

انتهيـــت مـــن حمامى، وانتشيت بفرحتى، واختطفت قطعة من الجبن فوق شـــريحة خبز، وأخذت ألوكها وأنا أعد فنجان قهوة. رن جرس مفاجئ، فتفززت،

وسرعان ما هدأت.. هذا جرس باب الشقة بالتأكيد، وتقدمت أحمل قهوتى فى يدى متجهاً نحو الباب.. من يأتى إلى فى هذا الصباح.. نعمان..؟ فتحت الباب فشاهدت أمامى مارك يبتسم ومن خلفه وجه نضر بالغ الحسن.. عائشة الأخرى..

– صباح الخير بروفيسور..

– صباح الخير مارك..

أدخلتهما، ووضعت القهوة فوق مائدة صغيرة عند مدخل الشقة، وذهبت أبدل ملابسى. فلما رجعت، شاهدتهما جالسيْن، ومارك يطوق كتف عائشة بساعده مستغرقين فى مناجاة. قلت وأنا أجلس قبالهما:

– صرت مصرياً يا مارك..

وسع حدقتى عينيه مستفسراً:

– ماذا تقصد بروفيسور..؟

أجبت وأنا أرتشف من قهوتى:

– من عادات المصريين أن يتزاوروا، دون موعد مسبق..

اندفعت عائشة تعتذر بالعربية:

– أنا آسفة يا دكتور.. لكن مارك هو الذى أصر..

كنت أواجهها مسروراً ومبتسماً، ويبدو أن مارك فهم إجابة عائشة، لأنه قال على الفور بإنجليزيته الفخمة:

– لدينا أمر هام نود أن نخبرك به بروفيسور..

– قلت على الفور:

– وأنا كذلك يا مارك.. جميل أنكما جئتما فى وقت مناسب..

شدّ انتباهه، فأهمل أمره الهام، وسأل:

– مـــاذا..؟

- قل لى أمرك الهام أولاً..

انطلق كطلقة..

- سنتزوج بروفيسور.. أنا وعائشة سنتزوج..

فوجئــت، ودهشــت، واعترانى الصمت لحظة.. بعدها عقبت محافظاً على ابتسامى:

- بهذه السرعة يا مارك..؟

قال بسرعة:

- ما معنى الانتظار..؟ نحن متحابان بروفيسور..

عدت إلى الصمت، ثم قلت:

- كلمت أباها وأمها..؟

بنفس السرعة أجاب:

- أمــس، بعد دعوة الغداء، واتفقنا.. سنتزوج هنا وتأتى معى بعد انتهاء الدراسة إلى إنجلترا..

تدخلت عائشة من جديد..

- هناك شرط واحد يا دكتور..

رفعت رأسى وسددت نظرى فى وجهها الجميل، وســألت:

- وما هو يا عائشة..؟

ردت تفاجئنى مرة أخرى:

- أن تأتى لزيارة أبى فى بيتنا..

قلت كالمفزوع:

- أنا؟

- أجــل. بابا لما عرف بوجودك منى وعلاقتك بمارك وأبيه اعتبرك بمثابة والده..

وأكملت بابتسام:

- نحن بالرغم من كل شيء يا دكتور مصريون ولدينا عاداتنا وتقاليدنا..

كنــت مســتغرقاً فى الحديث منذ لحظة المفاجأة، ومع ذلك مشغول الرأس بكافــة أبعــاد الموضوع، فلما تفوهت عائشة بجملتها الأخيرة، وجدتنى أكمل لها بغير عمد مسبق. قلت بهدوء يضمر تحدياً بديهياً:

- ومسلمون يا عائشة..

فإذا بمارك يجيبنى بدلاً منها، باقتناع وثبات:

- فى غضون أيام سأعلن إسلامى بروفيسور..

قلت وسط تفكيرى وانشغال رأسى..

- قد تتعرض لإجراءات طويلة..

فرد بنفس الثبات

- سأنتظر بروفيسور..

صــدقته. لســبب غامض وغير واضح المعالم صدقته. وتذكرت قول أبيه: ابــنى مهــووس بالدراســات الشرقية. نبرة الصدق فى صوت مارك، والوضوح والصراحة اللذان أطلا من صفحة وجهه، أنبآنى بأكثر من المعانى التى نطقت بها كلمات أبيه. فصدقته..

قال فى مواجهة سهومى:

- الأديــان كلها واحدة بروفيسور.. خلق الله الإنسان كى يكتشفها ويحقق بها سلام نفسه..

مــا كان أمامى غير أن أهنئهما. العالم يتبدل أمامى بصورة مفرحة، عالمى أنا يحتضر..

دق جــرس التليفون فى نفس اللحظة، وتنبهت، لكنى تباطأت فى الرد، فلما إعــتذرت إليهما كى أرد، وتهيأت لإمساك السماعة، لم يتكرر الرنين كأن التليفون

أصـــابته ســكتة. عدلــت عــن محاولة الرد على النداء وقلت متضاحكاً بصوت مسموع:

- كل يوم يحدث هذا..

فأمنت عائشة على قولى بنبرة تقرير:

- فى كل البيوت يا دكتور..

لكنى، لسبب يخصنى، كنت واثقاً أنها عائشتى..

ألقيــت قنبلتى عقب ذلك أمامهما: إنى راجع إلى إنجلترا غداً، ومعى تذكرة الســفر مؤكَّدة الحجز. تعالت صيحاتهما ما بين الاحتجاج والتوسل حتى كادت أن تصــبح صــخباً. عائشة هى التى رأيتها أكثر احتجاجاً وأشد توسلاً. اقترحت فى الــنهاية عليها اقتراحى الوحيد والصعب: أن تمضى بلا إبطاء وتدبر لى لقاء مع أبيها وأمها فى نفس اليوم، فى أى ساعة..

ووافقت مضطرة..

مشــيا علــى وعد بمخاطبتى تليفونياً، وقلت إنى سأكون منتظراً مكالمتهما ابــتداءً مــن بعــد الظهر. مشيا فوجدت نفسى وحيداً بالشقة من جديد. بعد فترة حضــرت أمى، هزيلة ذابلة. أخذتنى فى حضنها وأطلقتنى وتربعت أمامى، وقالت: شــد حيلك، اتخرج من الجامعة، وأنا حاجوزك ست البنات، وأعمل لك فرح تتكلم عنه بحرى كلها..

فوجدتــنى أرد علــى أمــى قــائلاً: يا أمى مستحيل.. منطق الحياة البسيط يعارضــك. أنــت لا تجدين ثمن الدواء، فكيف تعدَين لى فرحاً تتحدث بحرى كلها بــه..؟ وعروســى تحب التلاعب وتكره الوضوح، وأنا موزع بين الحيرة والقلق والــتردد. مستحيل يا أمى. أحلامك لن تتحقق. نحن لم نكبر بعد.. مارك وعائشة الأخرى أكبر منا.. لأنهما رضعا فى طفولتهما حليب البساطة، فلم تتعقد طرقهما.. تجنّبا طرق المأساة.

(٢٠)

طائــرة الخطــوط الجويـــة البريطانية تقلع من القاهرة بعد غد. يوم واحد فحســب بــاق لى هنا. اتصلت عائشة وقت الغروب، وقالت إن أباها ينتظرنى كى أقضــى المساء عندهم، والسهرة إذا أحببت، وأجبتها أنى لا أسهر ولكن يسعدنى أن أصــل إلــيهم بعد ساعة على وجه التقريب. ووصلت فى الموعد، وكانوا فى انتظارى جميعاً: الأب والأم وعائشة، ومعهم مارك بالطبع..

قوبلت ببشاشة من الأب والأم، ورحب بى باعتدال، وتكلمنا: سُئلت وسألت، وساد بيننا جو من الصداقة كأننا متعارفون من زمن. ودعيت إلى العشاء فرحبت متحفظاً ببرنامجى الغذائى، ولبَّت الأم طلباتى ببساطة متناهية. مضى الوقت سلساً منساباً، ولم يرفرف فوقنا جناح الغربة الداكن. فى نهاية اللقاء رجانى والد عائشة أن أجــيد شــرح الموضــوع لوالد مارك وأن ألتزم بالأمانة الموضوعية، وعدته ورجوتـــه بـــدورى أن يحرص على رعاية مارك، فهو شاب جاد ونادر، فوعدنى بدوره..

قُضِــى اليوم، وعدت إلى السكن منتشياً مبتهجاً. وبعد أن عدت توالى رنين التلـــيفون بيـــنما كنت أبدل ملابسى متهيئاً للنوم. دب القلق فى نفسى وأنا أتقدم وأرفع السماعة..

- فينك يا دكتور..؟

الحمد لله. نعمان..

- أهلا نعمان..

- كنت فين الوقت ده كله..؟ طلبتك أكثر من مرة..

تندرت..

- كنت أخطب لابنى.. عقبال ابنك..

عبر عن دهشته فشرحت له الموضوع، فدهش أكثر، وسأل عدة أسئلة تقليدية تتعلق بالشريعة الإسلامية فأجبته. سألنى بعد ذلك عن السفر، فقلت:

- تسعة ونصف صباح بعد غد من القاهرة.. وفجراً من الإسكندرية إلى القاهرة..

صاح:

- وليه ما حجزتش من الإسكندرية..

- لم أكن أعلم بوجود خطوط إلى لندن..

قال مستسلماً:

- الخيرة فيما اختاره الله. بس حنتغدى مع بعض بكره، الغدا الأخير، ومفيش اعتذار، وبعدين حامر عليك بعربيتى بعد ما أصلى الفجر بسيدى جابر.. جنبك.

استسلمت لإغراء التندر ثانية. قلت:

- الغداء الأخير، مثل "العشاء الأخير".. أرجو أن تدعو لى فى صلاة الفجر يا نعمان..

ويبدو أنه لم يفهمنى. رد قائلاً:

- منتظرك الساعة اتنين بكره يا دكتور..

وأنهينا المكالمة كلانا، فى وقت واحد..

نمت عميقاً، واستيقظت. وجاء مارك فى الصباح يحمل رسالة رجانى أن أسلمها لوالده وأجيب على أسئلته إن سألنى. وشد على يدى مودعاً ومضى..

فى الموعد قابلت نعمان. وذهبنا إلى بيته وتناولنا الغداء. أثناء الغداء، وفى حضور ابنه، ضحك وقال إن الغداء رشوة، لأنه ينوى أن يرسل ابنه لدراسة

الدكـــتوراه والحصـــول علـــيها مـــن جامعات إنجلترا إن نجح فى الحصول على بكـــالوريوس التجارة، وضغط على جملته الأخيرة، فلم أعرف إن كان جاداً يحفز ابنه، أم أنه يمزح..

بعد الغداء اصطحبنى إلى قهوة فاروق. فى المبتدأ قال ونحن سائرون نحو المقهى:

– هنا أنضف من القهوة إياها يا دكتور.. ناس محترمين يليقوا بمقامك..

أيعاتبنى..؟ لم أتبين، ولم أهتم..

جلســـنا ســـاعة استمتعت خلالها بنسمات ندية رقيقة هبت علينا من البحر القريب. قال نعمان مشيراً إلى نوة الأمس القريب:

– اللى حصل ده زوبعة فى فنجان.. الشتا الحقيقى لسه ما جاش.. حصلت قبل كده، والشتا اللى جه بعدها كان أجمل شتا يا دكتور..

وافترقنا، على أن يوافينى بعد صلاة الفجر مباشرة.. افترقنا، ذهب هو إلى دكانه، وتوجهت أنا إلى سكنى لأعد حقائب سفرى..

درت فـــى الشـــقة، ألملم أشيائى وأحزم حقائبى، فلما انتهيت، ضبطت منبه ســـاعة معصـــمى علـــى توقيـــت الفجر دون أن أنزعها من معصمى، ضماناً لأن أســـمعها حيـــن تـــدق قريـــباً مـــن أذنى. قربت المقعد الأثير من الشرفة الأثيرة واسترخيت، وكان الغروب قد رحل ممهداً لدخول الليل..

امـــتد اســـترخائى، وامـــتد عريضاً وعميقاً، فغلبنى الوسن. وانتفضت على صوت جرس التليفون. قفزت، التقط السماعة بدفع من وعى نصف حاضر ووعى لا إرادى. وهتفت:

– ألو..

جاءنى صوتها فبدأت أستفيق..

– كل يوم فى بحرى وما تمرش علينا..

يا ربي. هي نفسها. نفس رعشة صوتها، كأني أراها وأشاهدها وأجالسها..

- من حضرتك..؟

- عندك حق.. أنا فين وأنت فين..

- عائشة؟

- كويس لسه فاكر اسمي..

ركنت إلى الصمت، بعد أن هبطت بجسمي كله فوق مقعد قريب تكلمت هي..

- أهلك لتهلك يا دكتور..

- كيف عرفت أني دكتور..؟

- أخبارك كلها في بحري وأنت مش داري..

- أخباري كلها عندك، الأصح أن تقولي..

قالت بتحدٍ:

- معاك حق.. اتحريت عنك.. الراجل الغلبان عويضة جاب لي كل حاجة..

- متى..؟

- من يوم ما سألته عن عليوة.. وصفك كأني أنا اللي باوصفك..

استفزني ذكر اسم عليوة. وجدت نفسي أرد عليها بقسوة، تحد بتحد..

- عليوة الذي حرضت على قتله..

هاجت، وصك أذني صوتها كالهدير:

- كذب. ما حصلش. أنا كنت باكرهه صحيح، بس مش أنا اللي حرضت على قتله.. هو يستاهل على كل حال، عندي وكان بيتدخل في اللي مالوش فيه..

وهدأت، وقالت بصوت خفيض:

- الله يرحمه..

استدرجتنى، وأحسست بالندم على استمرارى فى الحوار. قلت أبغى وقفة:

- ماذا تريدين منى يا عائشة..؟

أجابت بقوة:

- مش عاوزه حاجة.. عندى اللى يكفينى وأكثر والحمد لله، وعندى ناس بإشارة منى يرموا نفسهم فى البحر..

قلت مقاطعاً:

- منى..؟ قلت منى.. لماذا أنا..؟

لم أتلق رداً. وبعد برهة سمعتها تغمغم:

- عاوزاك تسمعنى.. تسمع وجعى.. إنت سيبتنى وهربت.. كنت فين لما حصل كل اللى حصل..؟

وتوقفت. وسمعتها تزدرد لعابها، ثم تكمل بصوت متهدج:

- أنا أنثى.. طاقة ما حدش عرف يفجرها..

لم أرد بدورى..

وسمعتها تخلط بين الأمر والحنان، وهى تقول:

- تعال اشرب قهوة عندى. اسأل فى القهوة اللى بتقعد عليها، وكلمهم حيدلوك على مكتبى..

كدت أنطق، أخبرها أنى راحل بعد ساعات. لكن عفريتاً ألجم لسانى، عقَّله. تنحنحت. قلت:

- إن شاء الله..

شهقت. شهقت من الفرحة. تساءلت متهدجة الصوت:

- حتيجى؟

كـــررت قولى:

- إن شاء الله..

- بـــكره..؟

- إنشاء الله..

- بكره.. حاستناك..

- إن شاء الله..

نطـــق صـــوتها بالفرحة، بالصدق، بالإحساس بالأمان، وهى تقول، منهية المكالمة:

- مع السلامة يا حبيبى..

أرجعت سماعة التليفون، وبقيت جالساً فى موضعى. كان الظلام قد توغل. قمت وأضأت مصباح مدخل الشقة، وعدت إلى الجلوس..

جرى الوقت، بعسر جرى..

لم أنم، ضاع النوم..

وأخـــيراً ســـمعت آذان الفجـــر يتناهى إلى من مسجد قريب. خطوت داخل الشقة..

جمعت حقائبى بالقرب من باب الشقة وانتظرت..

بعد دقائق وصل نعمان.

الإسكندرية

أغسطس ١٩٩٩





صدر من هذه السلسلة:

---

1 **انفجار جمجمة** «رواية» .... إدريس على

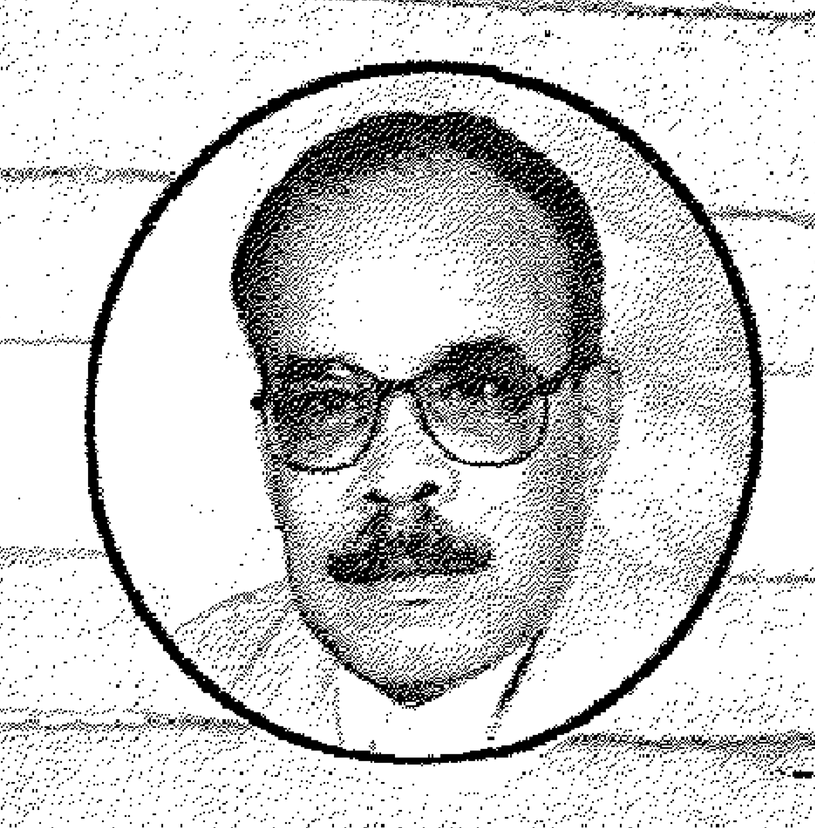
2 **البشمورى** «رواية روايات» .... سلوى

3 **ظل عائشة** «رواية» .... محمود



مطابع
إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة

هـذا الكـاتـب



محمود حنفى

- قاص وروائى مصرى يعيش بالإسكندرية .
- مواليد ١٠ يوليه ١٩٣٩– الإسكندرية .
- حاصل على جائزة الدولة التشجيعية فى أدب الرواية عام ١٩٨٢ .
- حاصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٣ .

للكاتب

- حقيبة خاوية (رواية) ١٩٨٠
- حكايتان من زمن القهر (رواية) ١٩٨١
- يوم تستشرى الأساطير (قصص) ١٩٩٢
- حديث الضد (قصص) ١٩٩٦
- وهن الجذور (رواية) ١٩٩٦
- بندق (قصص) ١٩٩٧
- ثلاثية المهاجر (ثلاث روايات) ١٩٩٩
- سجل أيام الاعتزال (رواية) ١٩٩٩

قيد النشر

- ليل الغرق السكندرى (رواية)
- الخطأ– الحاكم بأمر الله (مسرحيتان)

كثيراً ما أُشَبِّه غضب محمود حنفى على الظلم والكذب وهجاءه لشرور المجتمع، وألمه الممض لما آلت إليه أحوال البشر، بالهجاء الذى يماثله وحشية وألماً وحباً معكوساً، والذى نجده فى كتابات الكاتب البريطانى «جوناثان سويفت» صاحب العمل الرائع «رحلات جليفر» الذى أراد به سويفت أن يقدم لنا البشر عرايا، عرياً أخلاقياً ونفسياً وروحياً، فصورهم فى سخافاتهم وصغائرهم فى الحرب والسلم، وقدمهم لنا على أنهم مجموعة من القرود يتكالبون على مظاهر التفخيم والجاه، ويلغون فى الوحل بحثاً عن أحجار زائفة يزينون بها صدورهم.

دكتور على الراعى